141

الإصلاح

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

العدد 141 - السنة 8 - أفريل 2019 / شعبان 1440

بعد سبع سنوات من صدورها، هل كسبت «الإصلاح» الرهان؟

(م. فيصل العش)

حوار مع د. ناجي الحجلاوي حول إطروحته للدكتوراه: «التّفسير بين النّظر والأثر، الطّبري والجبّائي أنموذجا»

الخوف من التعلّم وعلاقته بالفشل الدّراسي

(د. محمد بن سكا)

نظرة في سياسة الإقطاع العمرية حادثة بلال بن الحارث المزني

(محمّد الصالح الضاوي)

الصبح القريب أيّ تعليم وطني أصيل للمجتمع الحديث؟

(أ.د.احميده النيفر)

توزّع مجّانا عبر البريد الالكتروني

المسجد النبوي

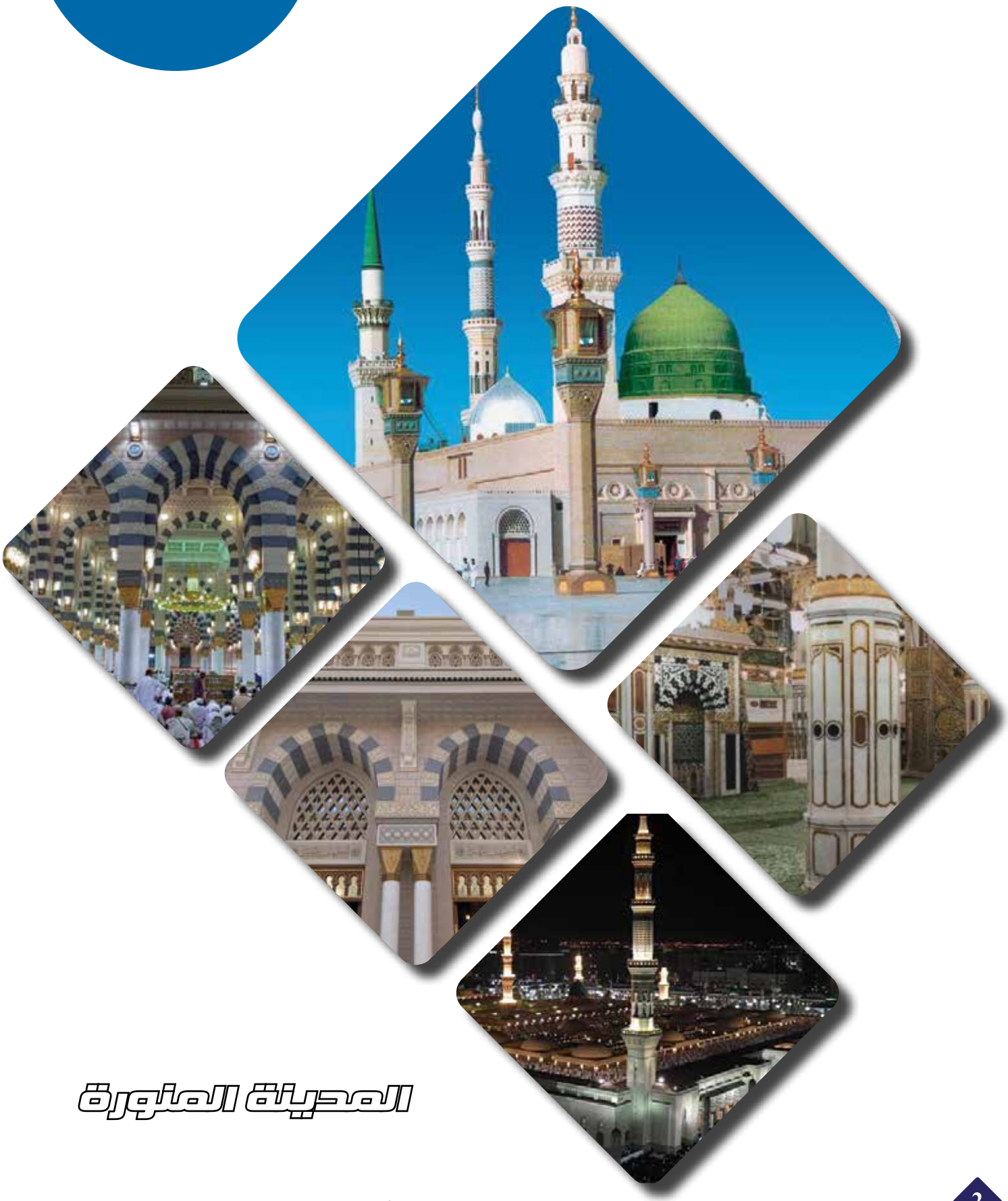

المدينة المنورة

مجلّة الإصلاح

مجلّة إلكترونيّة
فكريّة ثقافيّة جامعة
***
السنة السابعة

تصدر عن منتدى الفارابي للدراسات والبدائل
ص.ب 353، سيدي عبّاس 3062 صفاقس، الجمهورية التونسية
ر.د.م.د : 2902 – 2382.
هذه النسخة الكترونية - يحجّر نسخها ورقيّا

شعبان 1440
أفريل 2019
141
http://www.alislahmag.com

هدف مجلّة الإصلاح بلورة فكر وسطيّ يتفاعل مع محيطه ويقترح حلولا لمختلف مشاكله الفكريّة والسّياسيّة والاجتماعيّة. وتسعى المجلّة أن تكون حاضنة لأفكار ورؤى تناضل من أجل بناء دولة فلسفتها خدمة المواطن، ومجتمع مبني على التّعاون والتآزر والعيش المشترك في كنف الحريّة والمساواة. هي منبر للتّحليل واقتراح البديل من دون تشنّج إيديولوجيّ ولا تعصّب لفئة دون أخرى. يحلم القائمون عليها مواصلة ما بدأه المصلحون، دون تقديس لهم أو اجترار لأفكارهم، منطلقون من الواقع الذي يعيشون فيه، متمسّكون بهويّتهم العربيّة الاسلاميّة ومنفتحون على العصر وعلى كلّ فكرة أو مشروع يؤدّي إلى الإصلاح.

للمشاركة في تأثيث المجلّة

* النشر بالمجلّة تطوعي وبدون مقابل و يتحمّل فيه الكاتب مسؤولية أفكاره ومواقفه.
* لإدارة المجلّة كامل الصلاحيّة في نشر أو رفض المشاركات.
* لا تقبل المشاركات التي تدعو إلى العنف أو التّمييز على أساس الجنس أو العرق أو الدّين أو تتضمّن شتما أو معلومات من دون ذكر المصدر.

للاتصال بالمجلّة

* توزع المجلّة مجانا عبر البريد الالكتروني ومواقع التواصل الاجتماعي
* رئيس التحرير : فيصل العش، faycalelleuch@gmail.com
* مراجعة لغويّة : علي عبيد – فيصل الرباعي.
* ر.د.م.د : 2902 – 2382.
* البريد الالكتروني للمجلّة : alislah.mag@gmail.com
* موقع الواب : www.alislahmag.com
* صفحة الفايس بوك : alislah.mag

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

تحيّة طيّبة وبعد

نفتتح على بركة اللّه بهذا العدد سلسلة جديدة من مجلّة «الإصلاح» نؤثث بها السّنة الثامنة من عمر ها، آملين أن تنال إعجاب القرّاء الكرام. وبهذه المناسبة السّعيدة يسرّنا أن نتقدّم بجزيل الشّكر لكلّ من ساهم معنا سواء من تونس أو من خارجها في تأثيث أعداد السّنوات السبع التي مرّت على ميلاد هذه المجلّة الالكترونية (140 عددا) ونشكر ونحيّي قرّاءنا الأوفياء من مختلف أقطار الأرض الذين من دونهم نفقد شرعيّة الوجود ومنهم نستمدّ الدّافع والقوّة الكافية لمواصلة المشوار وإنجاز المجلّة ونشرها في مواعيدها المحدّدة. فلا خير في مجلّة لا قرّاء لها.وكل عام وقراء المجلّة وكتّابها بخير.

سيلاحظ القرّاء سَعينا إلى إدخال بعض التغييرات في شكل المجلّة حتّى نقدّمها للقراء في حلّة مختلفة تسرّ الناظرين وتبعث في النفس حبّ القراءة الالكترونية كما سيلاحظ أنّنا ارتأينا المحافظة فنيّا على اعتماد الألوان الثلاثة الأصليّة وهي الأزرق والبرتقالي والأخضر بالتداول باعتماد لون لكل عدد وذلك لضمان استمراريّة رمزيّة للمجلّة توحي بثبات المجلّة على المبادئ التي تأسست عليها وبعثت من أجل تحقيقها والتي تتلخص في تقديم غذاء فكري

متكامل للقارئ مع التمسّك أوّلا بالهوية العربية الإسلاميّة التي يُرمز إليها عادة باللون الأخضر وهو لون يرمز أيضا للنماء والطبيعة النظيفة والسلام والتجدّد، والتأكيد ثانيا على البعد المتوسطي والذي يرمز إليه اللّون الأزرق وهو لون يرمز أيضا إلى السّلام، والوحدة، والانسجام، والهدوء، والثّقة والبقاء على العهد، وثالثا في الدفاع عن أهداف الثّورة التي يرمز إليها باللّون البرتقالي وهو لون يرمز أيضا إلى الطّاقة والوضوح.

وقد حافظنا أيضا على أهمّ الأركان التي نالت رضا القراء الذين يصلنا نقدهم باستمرار والذي بدونه لا نتطوّر، فلا أمل في التحسّن من دون نقدهم ومقترحاتهم.

ونحن من موقعنا كقائمين على المجلّة، نعاهد قراءنا على مزيد بذل الجهد من أجل توفير المضمون الجيّد والمفيد، آملين أن نواصل معا ما بدأه المصلحون، دون تقديس لهم أو اجترار لأفكارهم، من أجل تحقيق أحلامهم وأحلامنا وأحلام هذه الأمّة في التنمية الشّاملة والازدهار حتّى تحتلّ الموقع الذي يليق بها بين الأمم

ولأنّ هذا العمل صعبٌ ويتطلّب مجهودات إضافيّة، فإنّنا ندعو كل من يطمح إلى المساهمة في هذا المشروع، أن يساندنا بالقراءة أو بالكتابة، أو بالتّوزيع عبر الوسائل الالكترونية المتاحة في مجال الاتّصال . وليعلم الجميع أنّ المدافعين عن الهويّة والمتمسّكين بها هذه الأيام كالقابضين على الجمر من شدّة ما يتحمّلونه من الأذى والمحاصرة بالرغم من الحرّية التي يضمنها الدستور الجديد للبلاد ولعلّ المشكل لا يكمن في المنافسين وإنّما في المنتمين إلى مشروع الهويّة أنفسهم حيث تفرّقوا بين مهتمّ بالسياسة والتحزّب فلا وقت لديه للاهتمام بالثقافة والفكر ورافض لكلّ تجديد فلا لزوم لمثل هذه الدوريات مع وجود أمّهات الكتب ومصنّفات الفقهاء الاشاوسة الذين ما تركوا موضوعا إلاّ قالوا فيه قول الفصل وبين من أصابه الارتخاء والطمأنينة فأصبح يرى في الفكر والثقافة ترفا لافائدة منه وآخر أصابه الإعياء جرّاء اللهث وراء لقمة العيش المضنية فلم تعد لديه لذّة للقراءة أو الاهتمام بالشأن الفكري والثقافي.

أمّا نحن فسنواصل المسيرة التي بدأناها منذ سبع سنوات ونأمل أن يلتحق بنا آخرون . والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

«لن تنالُوا الْبِرّ حتّى تُنفِقُوا مِمّا تُحِبّون»

«باروخ سبينوزا»

إن القوانين
التي تلجم الأفواه وتحطم الأقلام
تهدم نفسها بنفسها

«باروخ سبينوزا»

تقرؤون

الأولى
10 بعد سبع سنوات من صدورها، هل كسبت «الإصلاح» الرهان؟
م.فيصل العش

بهدوء
16 الصبح القريب
أيّ تعليم وطني أصيل للمجتمع الحديث؟
أ.د.احميده النيفر

في العمق
22 الحياة رغم أنف المشنقة والمحرقة
أ.د.فوزي أحمد عبدالسلام

كاريكاتير
27 حماريات : صراحة حمار!!!!

تاريخنا
28 نظرة في سياسة الإقطاع العمرية
حادثة بلال بن الحارث المزني (1)
محمّد الصالح الضاوي

تمتمات
34 لا أدري كيف؟ ولا متى؟
م. رفيق الشاهد

في الصميم
36 الخوف من التعلّم وعلاقته بالفشل الدراسي
د. محمد بن سكا

ترنيمات
41 حنين
د.سالم المساهلي

نقاط على الحروف
42 في معنى العنف الإرهابي:محاولة في فهم الظاهرة من أجل عالم يسع الجميع
د. سعيد السلماني

حوارات
50 حوار مع الدكتور ناجي الحجلاوي
م.فيصل العش

باختصار شديد
53 حوار ساخن في يوم ممطر
د.محمد بن نصر

الإنسان والسماء
54 مدّ الأرض
د.نبيل غربال

أسماء اللّه الحسنى
62 من هو اللّه؟ بحث في أسمائه الحسنى (5)
الحكيم
الهادي بريك

حتى لا ننسى
67 الذكرى 81 لأحداث 9 أفريل 1938
التحرير

حديقة الشعراء
68 يا عمر
عبداللّه الحيوي

حديقة الشعراء
69 ومضة في أفق الربيع
عبدالمجيد بلبصير

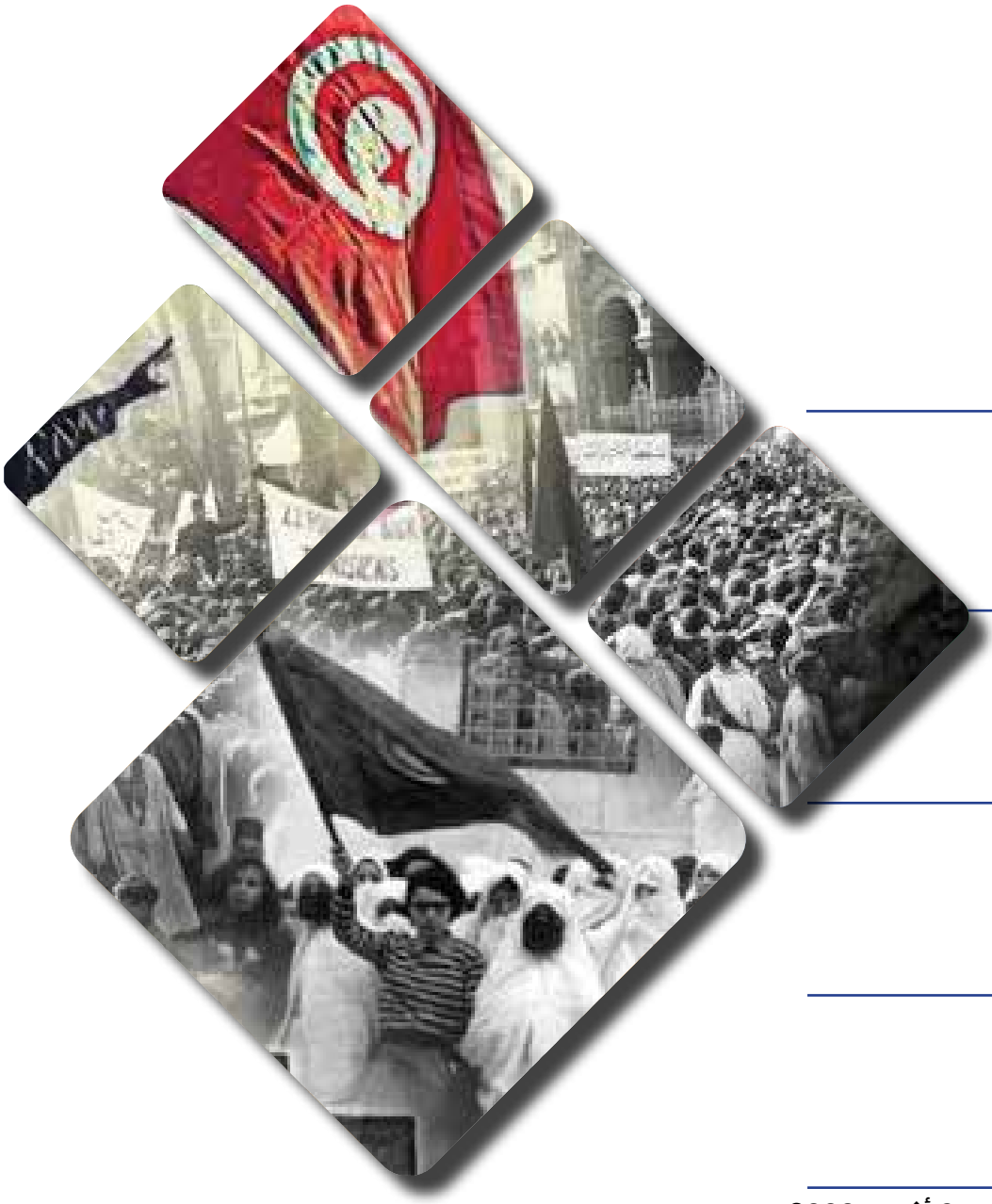

حديقة الشعراء

70 الصمت الفاجر

د. خالد بنات

حديقة الشعراء

71 البحّار والأفق

محمد العشي

شخصيات

72 أدغار موران ...

الفيلسوف الحكيم

التحرير

قبل الوداع

76 أزمة في القيادة

لطفي الهواثي

حتى لا ننسى

79 الذكرى 16 لغزو بغداد 9 أفريل 2003

التحرير

القصة المصورة - عميرات

81 الدعوة المستجابة

ابو فاطمة

16

بهدوء

الصبح القريب

أيّ تعليم وطني أصيل للمجتمع الحديث؟

أ.د.احميده النيفر

م. فيصل العش
«رئيس تحرير المجلة»
faycalelleuch@gmail.com

بعد سبع سنوات من صدورها،
هل كسبت «الإصلاح» الرهان؟

الحرّية مطلب وسلاح

لم تنطلق مجلّة «الإصلاح» من فراغ ولم تكن مشروعا عبثيّا لممارسة هواية الكتابة لاغير، بل كان وراءه غاية وأهداف أهمّها «الحرّية». يقول صاحب الفكرة : «ليعلم الجميع أنّني لا أبتغي من وراء إصدار هذه المجلة غير تمكين نفسي وأصدقائي من التّعبير بحرّية وأن نكتب ما نشاء بدون رقابة تذكر. نتبادل الأفكار والآراء، نتناقش بحرّية، نتدرب على "كتابة المواطنة" لنحقق جزءًا من مواطنتنا التي نعمل على بنائها خطوة خطوة...»[1] فبعد التّصحّر الفكري والكبت الدّيني الذي عاشه التّونسيّون أكثر من نصف قرن، كان من البديهي أن تظهر بعد الثّورة أفكار متعدّدة ومتباينة في أغلب الأحيان، وما لازمها من تجاذبات عديدة انعكست في صراعات داخل السّاحة الفكريّة وخارجها، تجاوزت أحيانا حدود نقد الفكرة بالفكرة وقرع الحجّة بالحجّة، لتتحوّل إلى محاولات إقصاء طرف لآخر. وهو ما لا يخدم مسار التّغيير من سلطة الإستبداد إلى سلطة الشّعب

ومن الخطّ الواحد إلى التّعدد والتّنوع ومن رفض الآخر إلى قبوله والتّواصل معه بل والاستفادة منه.

تعيش المجتمعات العربيّة الإسلامية أزمة «حرّية» حقيقيّة ذات جذور موغلة في التّاريخ وذلك في مجالات الحياة المختلفة وخاصّة السّياسية منها. فمن نافلة القول أنّ الفترات التي بزغت فيها شمس الحرّية في هذه المجتمعات قصيرة لا تمثّل شيئا يذكر في التّاريخ أمام فترات الاستبداد السّياسي وقمع الحرّيات، ولأنّ الحرّية كقيمة إنسانيّة هي من فطرة الإنسان وهي المنطلق والمقصد بالنّسبة لحركة الإنسان وفعله على وجه الأرض، وهي إحدى الدّعائم الأساسيّة في بناء الحضارات وتقدّم الأمم، فإنّ مسألة «الحرّية» كانت حاضرة بقوّة في مختلف أعداد مجلّة «الإصلاح» وهي بالنّسبة للقائمين على هذه الدوريّة قيمة ثابتة في فلسفة التّكوين وإحدى ركائز عمليّة الإصلاح المرجوّة وهي في نفس الوقت قيمة مناضلة ومقاومة للانحراف الذي أصاب المجتمع سواء في المجال السّياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي. فهي إذا مطلب أساسيّ وسلاح لاغنى عنه. ولأنّ الأصل في الحرّية الإطلاق بما أنّ ارتقاء الإنسان لاحدّ له يقف عنده، فهو ساير من المحدود إلى المطلق، فإنّ مجلّة «الإصلاح» أخذت على عهدها أن لا تضع حدودا لحرّية الكتابة على أعمدتها وفتحت صفحاتها لكلّ من أراد أن يعبّر عن رأيه مادام هذا الرّأي لا يدعو إلى عنف أو تمييز على أساس الجنس أو العرق أو الدّين ولا يتضمّن شتما أو قذفا للآخرين.

الشّعار يختزل القصد

اصطفّت المجلّة إذا منذ البداية في خندق التّغيير لكنّ الأسلوب الذي تبنته لم يكن راديكاليّا، لهذا جعلت من كلام الله على لسان النّبي شعيب عليه السّلام «إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت...»[2] شعارا، فالهدف الأسمى للمجلّة هو المساهمة في إصلاح الواقع الذي أصبح مشوّها نتيجة عقود من الاستبداد والفساد. ولا يمكن تحقيق ذلك إلاّ من خلال أفكار وازنة بعيدا عن الطوبويّة ورفع الشّعارات الرّنانة التي لا تغيّب عادة الواقع ولا تأخذ بعين الاعتبار مختلف المؤثرات التي تفعل فيه سلبا أم إيجابا. وهذا ما عبرّ عنه باعث المجلّة منذ الوهلة الأولى: «نريد من خلالها المشاركة في بلورة فكرة وسطيّة تتفاعل مع محيطها وتقترح عليه الحلول لمختلف مشاكله الفكريّة والسّياسيّة والإجتماعيّة. نريدها حاضنة لأفكار ورؤى تناضل من أجل بناء دولة فلسفتها خدمة المواطن، ومجتمع مبنيّ على التّعاون والتآزر والعيش المشترك في كنف الحريّة والمساواة. نريدها منبرا للتّحليل واقتراح البديل من دون تشنّج إيديولوجي ولا تعصّب لفئة دون أخرى. نحلم أن نواصل ما بدأه المصلحون، دون تقديس لهم أواجترار لأفكارهم، منطلقين من الواقع الذي نعيش فيه، متمسّكين بهويتنا العربية الإسلاميّة ومنفتحين على العصر وعلى كلّ فكرة أو مشروع يؤدّي إلى الإصلاح»[3] .

إنّها ببساطة مجلّة همّها الأساسي المساهمة في الخروج «من نجاسة الاستبداد إلى طهارة حكم الشّعب» [4]

اصطفّت «الإصلاح» منذ البداية في خندق التّغيير لكنّ الأسلوب الذي تبنته لم يكن راديكاليّا، لهذا جعلت من كلام الله على لسان النّبي شعيّب عليه السّلام «إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت...»شعارا

تمسّك بالهويّة وانفتاح على العصر

لم تبحث المجلّة لنفسها عن هويّة، بل سعى القائمون عليها منذ البداية إلى إبراز هويّتها بوضوح في تناسق تامّ مع منتدى الفارابي للدّراسات والبدائل الذي تبنّى المجلّة والذّي يعرّف نفسه بأنّه منتدى «عروبيّ إسلامي» ويجعل من أهدافه «تعميق الوعي الجمعي بمعنى الإنتساب إلى العروبة والإسلام وايجاد التّعبيرات الثّقافيّة الكفيلة بتجسيد هذا الإنتساب»[5]. يتجسّد هذا الانتساب من خلال «اعتبار الإسلام (وحيا وتجربة تاريخيّة وأفقا حضاريّا) مرجعيّة تتجذّر فيها البدائل»[6] التي نطمح أن ننجزها من أجل تغيير الواقع وتحقيق النّهضة.

يقول صاحب فكرة بعث المجلّة ورئيس تحريرها : «لا أفشي سرّا إذا ذكرت أنّ «الإصلاح» تصدر عن خلفيّة عروبيّة إسلاميّة تجديديّة وتنويريّة، ترى أنّ بناء الإنسان الحرّ القادر على الإبداع لا يكون بالتنكّر لهويّته والانسلاخ عنها وإنّما بالانطلاق منها والاستفادة من مخزونها الثّقافي والفكري الغنيّ بقيم الإسلام الخالدة وتعاليمه السّمحة باعتبارها القاعدة الأساسيّة للصّمود ومواجهة التّحديات»[7]

لم تكن المجلّة منبتّة عن واقعها بل كانت وسيلة للتّأثير فيه ومحاولة الرّقي به نحو الأفضل. «الإصلاح» منذ عددها الأول حدّدت خطّا تحريريّا بَوْصَلَتُه نشر الفكر الإصلاحي المستنير المتعلّق بهويّته وانتمائه للوطن الصّغير والكبير، وفتحت الباب على مصراعيه للذين يسعون إلى بناء فكر جديد يساعد على الخروج من خندق التخلّف والتّبعيّة ويساهم في إصلاح جذري لثقافة المجتمع عبر مقاومة ثقافة الخوف والرّهبة والاستكانة وثقافة التّواكل والاستسلام وثقافة الكسل ونبذ العمل والابتكار. إصلاح عميق يقضي على معيقات النّهضة والتحرّر ويؤسّس لمجتمع يكون فيه الإنسان إنسانا بأتمّ معنى الكلمة وتنتشر فيه قيم العدل والحريّة والكرامة. مجتمع يؤمن بالإختلاف والتّنوع ويرفض النّمطيّة مهما كان مأتاها.

متطوعون لا أجراء

تدخل الكتابة في مجلّة «الإصلاح» في باب التطوّع، فالذين أثّثوا الأعداد المائة والأربعين هم من المؤمنين بأنّ الكتابة رسالة وأنّها شكل من أشكال النّضال في زمن قلّ فيه العطاء بدون مقابل وبات فيه النّضال مشوّها ومحصورا في العمل الحزبي. لهذا كانت دعوة الإصلاح باستمرار تتّجه إلى الذين يشاركون القائمين عليها حلم بناء فكر جديد قادر على الإجابة عن الأسئلة الحارقة التي تشغل بال أبناء الأمّة، ويقاسمونهم الطموح في بلورة مشروع يقوم على قيم المواطنة والحرية والعدالة يؤدّي إلى إصلاح عميق يقضي على معوقات النهضة، ليساندوهم في تأثيث المجلّة بمقالات أو بحوث شرط أن تتوفر فيها اللّغة السليمة والنقد بالحجّة والبرهان والفكرة التي تساعد على الخروج من خندق التخلّف والتبعيّة.

> **تصدر «الإصلاح» عن خلفيّة عروبيّة إسلاميّة تجديديّة وتنويريّة، ترى أنّ بناء الإنسان الحرّ المبدع لا يكون بالتنكّر لهويّته والانسلاخ عنها وإنّما بالانطلاق منها والاستفادة من مخزونها الثّقافي والفكري**

من القطريّة إلى الاهتمام بهموم الأمّة قاطبة

كانت النواة الأولى لأسرة تحرير المجلّة تونسيّة، لهذا كانت في بداياتها قطريّة حيث اهتمّت في أعدادها الأولى بتونس منطلق ثورات الرّبيع العربي وما يشغل هذا القطر ويهدّد تحوّله الدّيمقراطي الناشئ، لكن انتشارها خارج البلاد وتوسّع المجال الجغرافي لقرائها وللمساهمين فيها من جهة وإيمان القائمين عليها بأن الإصلاح الحقيقي (خاصّة الثقافي) لا يمكن أن يكون قطريّا من جهة أخرى، دفعها إلى أن تتجاوز قدر الإمكان القطريّة في طرح المواضيع، فأصبح الاهتمام بما يشغل كلّ المسلمين والعرب أينما كانوا يدخل في المهام الأساسيّة للمجلّة. فقراء المجلة وكتّابها ليسوا كلّهم تونسيين بل ينتمون إلى الوطن الكبير فمنهم من المغرب وليبيا والجزائر ومصر واليمن ومنهم من جاليتنا العربية في الخارج سواء في أوروبا أو أمريكا وفي الدول الإفريقيّة أيضا ولهذا فإنّ مجال اهتمامات المجلّة توسّع ليشمل المجال العربي كلّه وأكثر.

الكترونيّة لا ورقيّة

يتساءل عدد كبير من القراء والأصدقاء: «لماذا لا تتحوّل المجلّة إلى ورقية وتغادر العالم الإفتراضي؟». فنجيبهم بأنّ ما يشهده عالم التكنولوجيات من تطور منقطع النّظير وما يوفّره هذا العالم من امكانيات وتسهيلات لا يوفّرها العالم «الورقي»، فإنّ المستقبل سيكون حتما للدّوريّات الإلكترونيّة. ومن يجد اليوم صعوبة ما في قراءة مقالات المجلّة الإلكترونيّة نتيجة عدم تأقلمه مع عالم التكنولوجيا الحديثة أو رفضه اللاّشعوري لما هو بديل عن الموجود، سيغيّر موقفه حتما في القريب العاجل لأنّ الأدوات المتوفّرة من حواسيب محمولة و«أي باد» وشبكات تواصل إجتماعي وواب وبرمجيات متطوّرة سهلة الإستعمال، ستمكّنه من ولوج العالم الإفتراضي بسهولة إذا ما توفّرت لديه الإرادة.

من مزايا النّشر الالكتروني أنّه يساعد على تخفيض المدّة التي يستغرقها نشر العمل ويفتح المجال أمام عدد كبير من المؤلفين المبتدئين وهو مع كلّ هذا قليل التّكلفة ومربح للوقت وسهل التّخزين والتّبويب. ومع الصّعوبات المادّية التي تتعرّض إليها الدّوريات الورقيّة وارتفاع نسبة استعمال الوسائط التكنولوجيّة لدى النّاس فإنّ الدّوريات الورقيّة ستسير نحو الاندثار والفناء مهما كانت القوى التي تدعّمها وتسهر عليها وستتحوّل عاجلا أم آجلا إلى الكترونيّة [8]. ولأننا نراهن على الشّباب الماسك بتلابيب التكنولوجيا والكهول الذين يؤمنون بأن الأميّ ليس من لا يعرف القراءة والكتابة بل الأميّ هو من لا يعرف كيف يستخدم الحاسوب ويستفيد من جميع الامكانيات التي توفرها التكنولوجيا الحديثة، لأننا نراهن على هؤلاء وهؤلاء فإننا سنواصل تحقيق حلمنا «الالكتروني» وسنعمل على تدعيمه.

> **من مزايا النّشر الالكتروني أنّه يساعد على تخفيض المدّة التي يستغرقها نشر العمل ويفتح المجال أمام عدد كبير من المؤلفين المبتدئين وهو مع كلّ هذا قليل التّكلفة ومربح للوقت وسهل التّخزين والتّبويب.**

أرقام ودلالات

بدأت مجلّة الإصلاح صغيرة حجما ومضمونا وكبرت مع مرور السنين شيئا فشيئا، فهل حقّقت ما رسمته لنفسها من أهداف وطموحات؟

مازال الطريق طويلا ولم يحن الوقت للإجابة القطعيّة على هذا السؤال، لكنّنا دائمون على القيام بالنقد والمراجعة ومتابعة تفاعل القرّاء مع المجلّة من خلال الأرقام التي تتوفر لدينا من الموقع. وسنكتفي بذكر بعض الأرقام ونترك للقراء الأعزّاء استخراج الدّلالات.

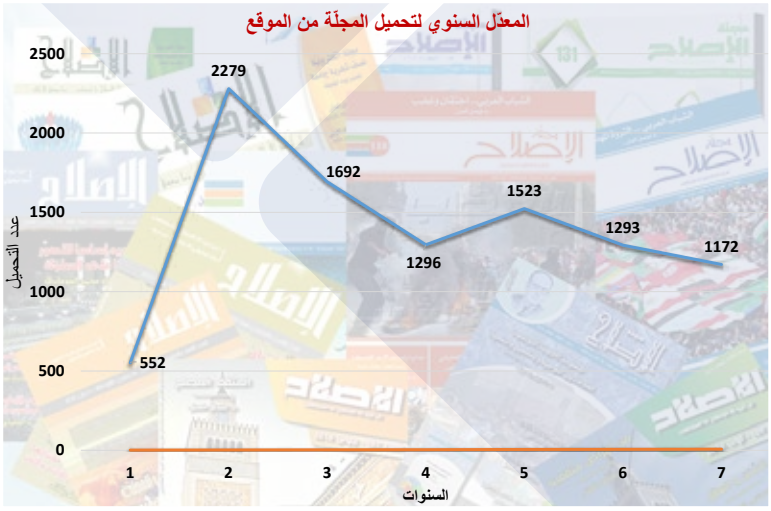

بعد عام من تاريخ صدور عددها الأول، أصبح للإصلاح موقعا الكترونيّا تفاعليّا يقترح على القرّاء والمتصفّحين أبوابا متعدّدة تعرّف بمحتوى العدد الجديد وتضمن إمكانية تحميل الأعداد السّابقة أو الاطلاع على المقالات حسب الكتّاب وتمكّن القائمين على المجلّة من معرفة عدد القرّاء الذين قاموا بتحميلها وبالتالي معرفة نسبة اهتمام النّاس بها.

وبالعودة إلى الأرقام نلاحظ أنّ تفاعل القرّاء من خلال تحميل الأعداد شهد إرتفاعا كبيرا خلال السنة الثانية ثمّ تقلّص ليستقرّ في حدود 1200 تحميلا.

أمّا من حيث عدد المساهمين بالكتابة في المجلّة، فإذا استثنينا الذين ساهموا بمقال واحد وعددهم 52 فإنّ 147 كاتبا وكاتبة قد نشروا على أعمدة الإصلاح مقالين أو أكثر، من بينهم 108 تونسيّا وتونسيّة، خمسة عشر منهم خارج الوطن و 39 من الوطن الكبير 26 منهم من المغرب الشقيق أمّا البقيّة فمن مصر وفلسطين والعراق والجزائر واليمن وسوريا والأردن.

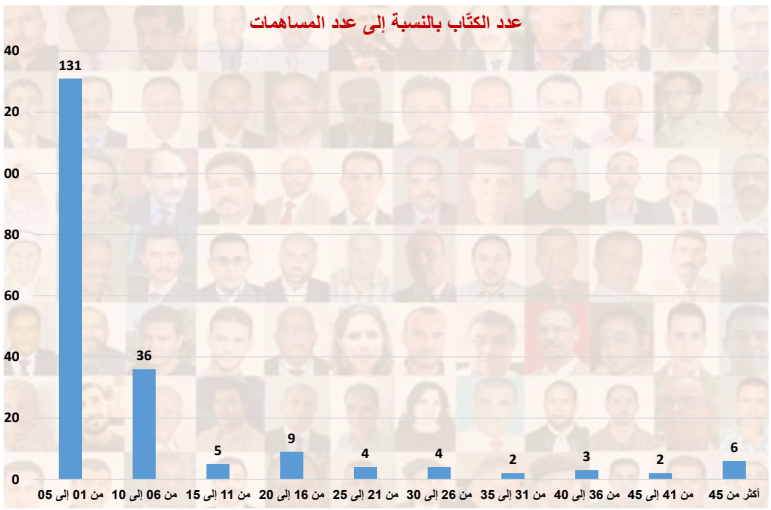

وحملت هذه الأعداد بين جنباتها أكثر من 1500 مقالا في ميادين عديدة فكريّة واقتصاديّة واجتماعيّة وسياسيّة وعددا غير قليل من التّحقيقات والحوارات بالإضافة إلى

بالعودة إلى الأرقام نلاحظ أنّ تفاعل القرّاء من خلال تحميل أعداد مجلّة الإصلاح شهد إرتفاعا كبيرا خلال السنة الثانية ثمّ تقلّص ليستقرّ في حدود 1200 تحميلا

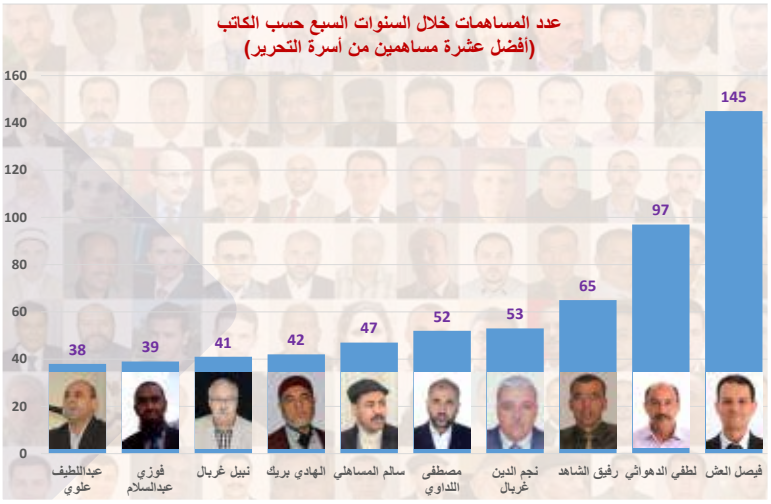

73 نصّ تعريفيّ لشخصيات إصلاحيّة وأكثر من 200 قصيدة شعريّة وكلمات 140 أغنية ملتزمة و70 قصّة كاريكاتوريّة مصوّرة.

هذه بعض الأرقام التي تلخّص مسيرة سبع سنوات، حاول خلالها القائمون على المجلّة تقديم أفضل ما لديهم مع محاولة الاستفادة من التكنولوجيّات الحديثة وخاصّة في مجال الاتّصال لتصل المجلّة إلى أكبر عدد ممكن من القراء، لكنّ الطريق مازال طويلا ولم يصلب عود «الإصلاح» بعد، ومازالت رائحة أزهارها العطرة ضعيفة حتّى تسيطر على الروائح النتنة التي تزكم الأنوف الصّادرة عن الرّداءة المهيمنة على السّاحة الثقافيّة والفكريّة في وطننا ومازال أمام القائمين عليها عمل كبير ولذلك عليهم بذل جهد أكبر من أجل توفير المضمون الجيّد المفيد وتقديم خطاب يتّجه إلى فطرة الإنسان وإلى عقله وإلى إحساسه ويسعى إلى تحريره بالتّوحيد ويجعل كرامته كإنسان أساسا لتحقيق قيم العدل والرّحمة والخير، وهو أيضا خطاب يدافع عن قوانين التّعدّد ونواميس التّنوّع وضرورات الإختلاف،حتّى تكون «الإصلاح» كـ«شَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا» ولا تكون كـ«شَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ»

فهل ستنجح «الإصلاح» وتصمد حتّى يصلب عودها وتنتج ثمارها أم سيكون مآلها الاستسلام فالاندثار في غياب الدّعم والإحاطة كما حدث لغيرها من الدّوريات المخالفة لقوانين الرّداءة التي تتحكّم في السّاحة؟

الهوامش

(1) افتتاحيّة العدد الأول من المجلّة. 4 افريل 2012

(2) سورة هود - الآية 88

(3) افتتاحيّة العدد الثاني من المجلّة. 20 افريل 2012

(4) عنوان لمقال للمهندس فيصل العش - مجلّة الإصلاح - العدد 63 - 22 أوت 2014

(5) و **(6)** من البيان التّأسيسي لمنتدى الفارابي للدّراسات والبدائل

(7) من مقال للمهندس فيصل العش، صدر تحت عنوان «شجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السّماء» بالعدد 78 من مجلّة الإصلاح - 20 مارس 2015

(8) من المجلاّت والصّحف العربيّة العريقة التي اضطرّت إلى التّحوّل إلى الصّبغة الإلكترونيّة نذكر الصّحف اللبنانيّة «النّهار» و«السّفير» و«اللّواء» ومن الصّحف العالميّة نذكر «إندبندنت» البريطانيّة ومجلّة «نيوزويك» الأمريكيّة.

أ.د. احميده النيفر
«جامعي وعضو المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون-بيت الحكمة»
ennaifer.hmida18@gmail.com

الصبح القريب
أيّ تعليم وطني أصيل للمجتمع الحديث؟

1- ليس من قبيل المبالغة القول بأنّ إحدى المعضلات الكبرى التي تطبع الفترة الرّاهنة في العالم العربي-الإسلامي تتمثّل في تكوين النّخب التي تخرّجها المؤسّسات التّعليميّة الجامعيّة عامّة والإسلاميّة خاصّة. تلك معضلة لا توضَع عادة في مصافّ التحديّات الجسام لَكَأنها من القضايا الثّانوية التي لا تستدعي إلاّ عناية اللّجان الفنيّة ورجال الاختصاص الضيّق رغم أنّها في العمق لا تقلّ خطورة عن مسائل الحكم وتوزيع الثّروة والتّحولات الاجتماعيّة والاختيارات الاستراتيجيّة. عند التأمّل يتبيّن أنّه على عاتق تلك النّخبِ المتعلّمة تقع مسؤوليّة اتخاذ القرارات التي تصوغ المستقبل، ذلك أنّنا -رغم كلّ ما يقال- ما نزال «مجتمعات نخب» ليس للجمهور الواسع فيها أثر يُذكر في تحديد الاختيارات ونحت الآفاق.

لا أدلَّ على خطورة المؤسّسات الجامعيّة عندنا ممّا يظهر من نشاز أو قطيعة بين النّخب التي تخرّجها وبين مجتمعاتها إبانّ الأزمات الكبرى. مع التّحديات الجسيمة يبرز التّناقض المفضي إلى الاصطدام بين

توجّهات عموم المواطنين وطبيعة مطامحهم وبين رؤى النّخب وما تؤدي إليه من سياسات يعتمدها الحكّام. إلى هذا يمكن أن نعزو جانبا من أزمة الحكم العربي المتمثّلة في التوجّس المتبادل بين من يمتلك السّلطة (السّياسية والمعرفيّة) وبين مجتمعات لا تُستشار فعلا لأنّه لا يُطمأَنُ إلى وعيها. يحصل هذا في ظلّ تراجع هائل لمكانة المثقّف، ذلك العنصر الرّئيس في إزالة الفجوة الهائلة بين أصحاب السّلطة وبين من تُمارَس عليهم.

2- ثم إنّ معضلة المؤسّسات التّعليميّة قديمةٌ قِدمَ تنافس شيوخ العلم وما أورثه من تمذهب ثمّ صراع بين أطراف الملّة الإسلاميّة. وراء جانب من ذلك السّجال وتلك المناظرات تكمن تصوّرات متباينة للسّبل المحقّقة للمشاركة في العلوم. تأكّد ذلك مثلا فيما بين المغاربة والأندلسيّين من اختلاف في مناهج التّعليم نبّه إليه «ابن خلدون» مرجّحا ما اعتمده أهل الأندلس لتحقيق نسبة عالية من نباهة أبنائهم واقتدارهم على تحصيل المَلَكات. أمّا في المشرق، فمن الشّواهد على اختلاف النّظر إلى المسألة ما نقله بعض المتقدّمين في تقويمه لظاهرة «المدارس» التي أُنشئت على نمط المدرسة النّظامية معتبرا أنّ ظهور «تلك المدارس أفسد العلم» إذ أبعده عن التّخصّص الذي كان عند العلماء.

في الفترة الحديثة تفاقمت أزمة التّعليم لتبلغ حدّا غير مسبوق، فبعد أن كان التّعليم كما قرّره النّظر الخلدوني مجالا واحدا و« صنعة أساسيّة من صنائع العمران» تصاغ ضمنه الشّخصيّة الحضاريّة للجماعات، انشطرت المؤسّسة التعليميّة إلى شقّين: شقٍّ مدنيّ يرمي إلى سعة الفكر في وجيز الوقت وغايته القصوى التنميّة وشقّ دينيّ قاعدته تركيز قيم التّراث ونظامه الاجتماعي ومقصده عقديّ وخُلقيّ.

حاول التصدّى لهذا الفصام رجال الإصلاح في البلاد العربيّة منذ منتصف القرن التاسع عشر بدرجات متفاوتة من الاهتمام.

3- لعلّ من أفضل ما دُوّن في هذا الباب تأليف نادر المثال للعلاّمة التّونسي «محمد الطاهر ابن عاشور» اختار له عنوان: «أليس الصبح بقريب؟»

اهتم المؤلف بهذا الموضوع في مطلع حياته العلميّة قبل أن تتّجه عنايته إلى تفسير القرآن والأصول والمقاصد إدراكا منه لمدى حساسيّة القضيّة وبالغ أثرها في حياة النّاس ومستقبلهم.

إذا كان الكتاب قد وُضع سنة 1910 إبّان اضطرابات طالبيّة شلّت التّعليم لعدّة أشهر في الزّيتونة، أقدم جامعة عربية إسلاميّة، فإنّه لم يلمّح إلى تلك الأزمة إلاّ لماما. حرص المؤلف على معالجة فلسفيّة وحضاريّة لمسألة التّعليم مع استيعاب لتاريخ المؤسّسة لدى المسلمين والفرس واليونان وأروبا الحديثة.

تفاقمت أزمة التّعليم في الفترة الحديثة لتبلغ حدّا غير مسبوق، حيث انشطرت المؤسّسة التعليميّة إلى شقّين: شقٍّ مدنيّ يرمي إلى سعة الفكر في وجيز الوقت وغايته القصوى التنميّة وشقّ دينيّ قاعدته تركيز قيم التّراث ونظامه الاجتماعي ومقصده عقديّ وخُلقيّ.

لكنّ السّؤال النّاظم لهذا الأثر بكلّ فصوله هو البحث عن أسباب فساد التّعليم في بلاد المسلمين وكيف تتمّ معالجتها؟

إذا أردنا التّركيز فإنّ هذا العمل الضّخم الذي مرّ عليه اليوم ما يزيد على القرن يظلّ معاصرا لعدّة أسباب أهمها:

- اعتمادُ معالجةٍ خلدونية لقضايا المؤسّسة التّعليميّة الإسلاميّة في سياقها الحديث. لذلك جاءت الرّؤية متكاملة وغير مقتصرة على الاعتبارات المحليّة بل نزّلها ضمن سُنّة حضاريّة تربط بين التّعليم والعمران.

- التوصّلُ من خلال هذه المعالجة إلى زوايا تحليل تتيح فهمًا أعمق وحلولا أكثر جرأة. أهميّةُ هذا التّمشي فيما يُقدِر عليه من تمييز في مستويات النّظر بين المتعلّق بنظام التّعليم وإدارته وبين الخاصّ بالمناهج وطرق التّفكير وبين أساليب التّعليم وطرق التّبليغ.

- إقرار واضح بمركزيّة مسألة المؤسّسة التّعليمية ضمن التوجّه الإصلاحي العام المنطلق من مبدإ: « تكرار الأصل ليس أصالة بل نسخٌ وتشويهٌ». لذلك يثبت الشّيخ ابن عاشور حدًّا للعلم فيقول: «هو ليس رموزا تُحَلُّ ولا كلمات تُحفظ ولا انقباضا وتكلُّفا ولكنه نور العقل واعتداله وصلوحيته لاستعمال الأشياء فيما يحتاج منها فهو استكمال النّفس والتطهّر من الغفلة والتأهّل للاستفادة والإفادة».

4- ظلّ هذا التّأليف مخطوطا عند مؤلِفه لم يُنشر على النّاس إلا سنة 1968بعد أن تغيّرت أحوال المؤسّسة بصورة كاملة إذ ظهر تعليم مدنيّ عالٍ همّش المؤسّسة العتيقة مُعرِضا عنها وعن مناهجها ومرجعيتها وعمّا بذله الشّيخ من جهود إصلاحيّة غايتها الارتقاء بالتّعليم.

اعتنت الكلّيات الجديدة ذات الاهتمام بـ «الإنسانيّات» بـ«عبقريّة المُحدَث» وحذق أفنان المعرفة الحديثة بالاطلاع على إنتاج الفكر الكوني إطلاعاً مباشراً بينما انزوت الدّراسات الإسلاميّة فيما تبقّى من الزّيتونة في معارف تقليديّة تقتصر على نقل ما قال المتقدّمون مع إضافة بعض الفنون الجديدة كالفلسفة والتّاريخ ظنّا بأنّ ذلك يوجد مَلَكة علميّة ويحصّن الهويّة الوطنيّة.

ما تحقق فعلا مع المؤسّسة النّاشئة هو استحكام أزمة النّخب الجديدة التي تؤكّد مفارقة المؤسّساتِ التّعليميةَ الحديثة في عجزها عن تجاوز الفصام الثّقافي الذي يطالَب معه الخرّيجون ببناء روح وطنيّة تتمثّل التّراثَ وتجاربَ الماضي لكنّهم يكونون في ذات الوقت مندفعين إلى ولوج الحضارة العصريّة في ظروف استثنائيّة تلزم استغناءهم عن جانب هامّ من خصوصيّاتهم الثّقافيّة.

يظلّ «أليس الصبح بقريب؟» معاصرا لاعتماده معالجةٍ خلدونية لقضايا المؤسّسة التّعليميّة الإسلاميّة في سياقها الحديث والتوصّلُ من خلالها إلى زوايا تحليل تتيح فهمًا أعمق وحلولا أكثر جرأة مع إقرار واضح بمركزيّة مسألة المؤسّسة التّعليمية ضمن التوجّه الإصلاحي العام المنطلق من مبدإ: «تكرار الأصل ليس أصالة بل نسخٌ وتشويهٌ»

في الجانب الآخر لم يثمر حشد معارف جديدة إلى جانب أخرى تقليديّة في توليد ملكة علميّة وفكر معاصر، لم يظهر جدل بين الدّاخل والخارج المعرفيين والثّقافيين ولم تظهر معرفة متّسقة تتجاوز النّسيج المعرفي السابق من حيث التمكّن والراهنية من خلال القدرات الكامنة في الفكر والشخصية الذاتيين.

5- بين هؤلاء وأولئك لم يعر أحد اهتماما بمشروع « أليس الصّبح بقريب؟»، رغم النّزعة التّفاؤلية العالية التي حملها العنوان بخصوص إمكان التغلّب على علل المؤسّسة التّعليميّة الوطنيّة. لقد بقي هذا التوجّه مغمورا في الأدراج طوال حياة المؤلِف ثم مهملا بعد وفاته.

اليوم حين ترتفع أصوات مطالبة بإصلاح التعليم الإسلامي توقيّا من التطرّف والتكفير لا نملك إلاّ أن نستحضر فذاذة هذا الرّجل الذي بنى رؤيته الإصلاحيّة للمناهج التعليميّة منذ زهاء القرن على مفاهيم ثلاثة: الغاية الحضارية - الإبداع - الموضوعيّة.

في المفهوم الأول يتأكّد التّلازم بين عنصرين في كلّ تعليم سليم: تكوين المَلَكة العلميّة ضمن منظومة ثقافيّة منفتحة على الأفق العمراني. في هذا يقول ابن عاشور: « بإهمال الآداب والأخلاق اعتقد النّاس أنّ العلم منحصر فيما تتضمّنه القواعد العلميّة كالنحو والفقه ...فمالت طائفة من العلماء إلى الحفظ والاستكثار من فروع المسائل ومن عدد العلوم».

6- يرتبط ثاني المفاهيم بالوعي بأحد أهمّ أسباب تأخّر التّعليم في العالم الإسلامي: إنّه «غياب حرّية النّقد الصّحيح في المرتبة العاليّة وما يقرب منها وهذا خلل بالمقصد من التّعليم وهو إيصال العقول إلى درجة الابتكار ومعنى الابتكار أن يصير الفكر متهيّئا لأن يوسّع المعلومات ولا يكون ذلك إلاّ بإحداث قوّة حاكمة في الفكر».

أما الموضوعيّة فهي لا تنبثق إلاّ عند التّمييز بين ما هو من متطلبات الأهداف القريبة للتّعليم وما هو من لوازمه الغائيّة. يقول صاحب الصّبح القريب: واجب التّعليم هو «التّدريب على العمل وحبّ التّناسب في المظاهر كلّها وإدراك الأشياء على ما هي عليه والتّباعد عن الخفّة والطّيش وعن الجمود والكسل وسوء الاعتقاد في الأمور الوهميّة بحيث يكون العدل في جميع الأشياء صفة ذاتيّة».

من هذا المفهوم الثالث بالذّات تبرز حقيقة التّحدّي الذي يواجه النّخب الجامعيّة العربيّة في تعاملها مع ثقافتها وخصوصيتها في سياق ثقافة العولمة المتوحّشة.

حين ترتفع اليوم أصوات مطالبة بأصلاح التعليم الإسلامي توقيّا من التطرّف والتكفير، لا نملك إلاّ أن نستحضر فذاذة العلاّمة التّونسي «محمد الطاهر ابن عاشور» الذي بنى رؤيته الإصلاحيّة للمناهج التعليميّة منذ زهاء القرن على مفاهيم ثلاثة: الغاية الحضارية - الإبداع - الموضوعيّة.

أخطر ما في هذا الفصام التعليمي- الثقافي هو عدم الاتفاق على دلالتي الموضوعيّة العلميّة والانتماء الثقافي.

7- في هذا المستوى من البحث تُطرح جملة أسئلة منها قسم للنّخب الحداثيّة:

- لأيّ غاية نؤطّر تعليم الدّين أو الظّاهرة الدّينية بعلوم الحداثة في البلاد الإسلاميّة؟

- حين ننطلق من مقولة: النصّ المقدّس نصٌّ تاريخي أساسا معتبرين أنّه يحول بين عقول المسلمين وبين الانفتاح على العصر بمعارفه ومناهجه، حين نفعل هذا ألا نكون قد اعتمدنا موقفا قبْليا من الإسلام وهل نكون عندئذ متلزمين بشروط الموضوعية والحياد العلميّ؟

- هل كلّ ولاء ثقافي وكلّ انتماء عقدي مناهضٌ للبحث العلميّ الجادّ؟ أليس من التعسّف القول بأنّ هناك مستوى واحدا من الموضوعيّة؟

أمّا النخب التراثيّة فينبغي توجيه ما يلي إليها:

-هل الحرص على الهويّة الثقافية يستلزم إنكار القول بأنها مكوَّنة من جملة عناصر مختلفة وبأنّها دوما في حالة تشكّل وحراك؟

- أيجوز لنا علميّا أن نعتبر أنّ التراث حاوٍ للتاريخ والواقع المستجدّ في آن؟ وكيف يتأتّى عندئذ تفسير حالة تعطّل المؤسسات الجامعيّة التقليديّة وعجزها عن الإبداع الفكري والعلمي؟

- أليس من الخلط اعتبار المطالبة بالتجرد لاكتشاف تاريخية « فَهْمٍ ما لنصٍّ مقدّس اعتداءً على إيمان المؤمنين؟ أليس من جوهر الإيمان النّظر إلى أنّ النّص - لكونه مقدّسا- فإنّه يظلّ أوسع من فهم واحدٍ؟

في كلمة، إنّ تحرّي الموضوعيّة المعرفيّة في التّكوين الجامعي أمر أساسيّ لكنّ اشتراط التّجرّد من كلّ أثر للمقدّس عند إنجاز أعمال جامعيّة وفكريّة حديثة حقيقةً إنّما هو التّعسّفُ باسم العلم. هو إقرار بأنّ الموضوعيّة لها وجهة واحدة وهو إصرار على الفصام النّكد الذي لا يسعى في تقريب ساعة الصّبح من مؤسّساتنا الجامعيّة.

كتاب الإصلاح

سنعود قريبا...

16

تركيا... الحدث وتغير الإحداثية

«سامي الشعري»

17

مواجهة الفقر
بين قصور التمويل الأصغر التقليدي
و فُرص التمويل الإسلامي

«نجم الدين غربال»

18

فلسفة الفعل التاريخي
في القرآن الكريم

«لطفي البكوش»

أ.د.فوزي أحمد عبد السلام
«أستاذ ديناميكا الغضا، بجامعة القاهرة»
f.a.abdelsalam@gmail.com

الحياة رغم أنف المشنقة والمحرقة

من يوليوس فوتشك إلي هاشم الرفاعي

إنّ من أعظم النّعم التي أنّعم الله بها علينا هي أن أخفى عنّا وعن أحبابنا ميعاد خروجنا من هذه الحياة، ومن ثمّ فلست أدري بأيّ قلب تعيش أمّ وهي تعلم أنّ ابنها «الذي ودّع الطفولة من قريب واستقبل زهرة الشّباب» سيفارق الحياة في لحظة قريبة جدّا بل ومعلوم ميعادها لها. يذكّرني ذلك في أدبنا العربي بقصيدة هاشم الرّفاعي الرّائعة التي كتبها من زنزانته إلي أبيه:

أبتاه ماذا قد يخطُّ بناني والحبلُ والجلادُ ينتظراني

في واحدة من أروع القصائد التي تصوّر الإنحطاط والغدر الإنساني الذي يسجن الحياة بل يسحقها في الدّرك الأسفل من الحضارة الإنسانيّة «المسمّى بالمعتقلات السّياسية»، التي تحاول دوما أن تُسكت كلّ صوت حرّ، ويذكّرني بما كتبه أيضا «يوليوس فوتشك» الشّاعر التّشيكي المجري الشّيوعي المناهض للهتلرية في محبسه بسجن «بانكراك» النازي بانتظار تنفيذ الحكم عليه بالإعدام من قبل النّازيين أبياتا في غاية الرّوعة، يقول «فوتشيك»: تعودّت طوال حياتي أن أغنّي للحياة، ولا أدري لماذا يجب عليّ أن أتوقّف الآن، إنّ

إحساسي بالحياة يزداد.

وفي نفس اللّيلة أيضا كتب يقول: لقد عشت للفرح، وفي سبيل الفرح أموت، ولسوف تسيؤون إليّ لو وضعتم ملاك الحزن عند قبري. كانت هذه الأوراق التي تحوي مثل هذه الكلمات قد سرّبت لزوجة «فوتشيك» لتقوم بتجمعيها ونشرها في كتاب « تحت أعواد المشنقة»[1]، يخلد مأساته بكلّ تفاصيلها، ليس هناك عذر للذين أدركوا الفكرة وتخلّوا عنها بعد ذلك، إنّ من يعرف أين هو الشّر لا يحقّ له أن يخطئ، ولا يجوز له أن يخون نفسه، لأنّه سوف يخون الآخرين، عندما يقرّر المرء موقفه مع أو ضدّ، ومتى تقرّر ذلك، فعليه أن يقف وراء يقينه حتّى النّهاية.

هذا هو السّيناريو الذي يجري دوما بين الدّيكتاتورية أينما كانت والمنادين بالحرّية، وهذين مثالين من الشّرق ومن الغرب ومن ثقافتين مختلفتين، كأنّها جزء من حركة الصّراع والتّدافع بين الحقّ والباطل من الرّواية الكونيّة.

بين موت الإنسانيّة وإحيائها

أي ذنب اقترفه عبدا لله حتّى أفقده إنسانيته، فيسمع بأذنيه ما يدفع الاتهام عن هؤلاء الفتية الصّغار[2]، خصوصا عندما يتمّ انتزاع الاعتراف تحت سطوة التّعذيب الرّهيب، هذا الاعتراف الباطل يأمل من خلاله هذا الشّاب المعذّب أن يجد نفسا يتنفّسه دون تعذيب حتّى لو أفضى به هذا الاعتراف إلى الموت على أعواد المشانق، لكنّه ربّما حدّث نفسه أنّه موت دون موت، ربّما حدّث نفسه أنّ الموت شنقا ينتهي في لحظات وهو أهون آلاف المرّات من الموت كلّ يوم تحت آلام التّعذيب، إنّه موت يريح من قسوة التّعذيب الذي لا يتحمّله بشر.

يسمع بأذنيه ما يوجب دفع الاتهام حتّى ولو بالشّبهات، ذلك لأنّ الأصل هو البراءة فلا يثبت إدّعاء بالشّبهة، وقد استقر في الضّمير الإنساني أنّ الحدود تدرأ بالشّبهات، خصوصا حدّ القتل الذي يسلب الإنسان روحه، ماذا يحدث إذا تبيّن أن الحكم عليهم كان خطأ وقد سلبت حياتهم، كيف يرجعونها إليهم، لذلك كان الخطأ في العفو أفضل بكثير من الخطأ في العقوبة. ففي الحديث «ادْرَءُوا الْحُدُودَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَخْرَجٌ، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَإِنَّ الْإِمَامَ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ في العقوبة»[3] وليس ذلك دعوة لإسقاط العقوبات، لكن زيادة في التّحري والتّدقيق إبراء للذّمة خصوصا في عقوبة كهذه «الإعدام».

لقد قضى أحد الأمريكان 39 سنة في السّجون الأمريكيّة بتهمة قتل صديقته وطفلها الصّغير وظلّ طوال مدّة سجنه ينادي ببراءته، ولم تكن تحليلات الحامض النّووي منذ أربعين سنة على نفس الدّرجة من الدّقة التي هي عليها الآن وظلّت المحكمة محتفظة بأحراز القضيّة طوال الأربعة عقود وعندما تقدّمت هذه البحوث

> **ليس هناك عذر للذين أدركوا الفكرة وتخلّوا عنها بعد ذلك، إنّ من يعرف أين هو الشّر لا يحقّ له أن يخطئ، ولا يجوز له أن يخون نفسه، لأنّه سوف يخون الآخرين.**

في أيامنا هذه أعيد فحص هذه الأحراز بالتّكنولوجيا الجديدة وكان محكوما عليه بالسّجن مدى الحياة، فإذا ببراءته تثبت للجميع بعد 39 عاما قضّاها بالسّجن وتمّ تعويضه بواحد وعشرين مليون دولارا أمريكيّا. أنظر إلى الصّبر الطّويل من هؤلاء القضاة لسبر أغوار الحقيقة. بينما هؤلاء الشّباب الذين حين احتجزتهم أجهزة الأمن كان بعضهم لايزال قريب عهد بالطّفولة وبعضهم في مقتبل العمر، تسمع الدّنيا آهات التّعذيب الذي لا يتحمّلها بشر، فتتحرّك مشاعر الإنسانيّة فيهم، ولم تتحرّك لذلك الكائن الجالس على المنصة شعرة ويقول بأنّ تحت يده اعترافا بارتكاب الجريمة!. أيّ نفس يحمل بين جنبيه ذلك الكائن الذي يشبه الإنسان وليس بداخله أيّ ذرّة من إنسانيّة. ماذا فعلت به الديكتاتوريّة والفساد والاستبداد كي تجرّده من كلّ معاني الطّهر بل وتحرمه فرص التّطهّر.

يذكّرني ذلك بحادثة على الضّد من ذلك تماما «بين موت الإنسانيّة في حالة وإحيائها في أخرى» أي نفس عالية سامقة كانت تحتويها المرأة الغامديّة حين أعلنت على الملأ أنّها قد زنت وأنّها قد أتت لتطهّر نفسها من دنس الخطيئة الإنسانيّة في مجتمع كان معروف للقاصي والدّاني بشاعة هذه الخطيئة حتى أنّهم كانوا قبيل الإسلام يدفنون الأنثى حيّة، وفي مجتمعات مماثلة كانت من ترتكب مثل تلك البشاعات تدفن حيّة في التّراب بل وفي الخفاء من قبل أهلها المقرّبين خوفا من الفضيحة، أيّ قربى بين الغامدية وبين الله يجعلها لا تخاف الموت بعد الفضيحة لأهلها لا غير سوى الخلود في طهارة؟.

أنا أعلم كيف يحصد الرّصاص الأرواح لكن لا مبرّر لمن وقع تحت سياط الموت بأن يحافظ على دمه هو بهدر دم إنسان غيره، فليس دمه أزكى ولا أطهر من دم غيره. والأسوأ من هذا الكائن الذي قضى بشنق هؤلاء، أولئك المثقّفون والمفتون الذين بدلا من تبيين الحقّ للنّاس، يلبسون الحقّ بالباطل لتظلّ الجماهير تحت السّيطرة كالحيوانات الأليفة. بين هذا المشهد وذاك ما بين طرفي النّقيض، إمرأة تحيي إنسانيتها بتسليم نفسها للموت تطبيقا لحدّ من حدود الله وبين آخر يميت إنسانيته بالتّعلق بأيّ نوع - حتى ولو كان نجسا - من الحياة.

الحمل الثقافي الكاذب وفلسفة الخيانة

حين يتحدّث المسؤول: يقول لابدّ من الحفاظ على مقدرات البلد وهو يغوص من أخمص قدميه حتى هامته «إن كانت لديه هامة» في سرقة مقدرات ذلك البلد، وحين يتغنّى الشاعر بالأمجاد السّرابية متراقصا على أشلاء ابن أبيه. وحين تجد المثقّف حاملا من بطون الكتب حمل صدق يراد به تزوير الحقيقة بخطاب يبدو من خلاله أنّ المعاناة قد سلبته النّوم ليغوص في بطون التّجارب والخبرات ليحلّل لنا واقعنا الأليم، وهكذا وكما تؤجر النّائحات «النّدّابات» في المآتم «في تراثنا الشّعبي» يؤجّر المثقّفون الذين توالدوا من عمليّة غير شرعيّة هي زواج السلطة الديكتاتورية من المثقف، يحملون منها حملا ثقافيا كاذبا يطوفون به علي سواد الأمة

> **الأسوأ من الكائن الذي أصدر حكما بشنق الشباب، أولئك المثقّفون والمفتون الذين بدلا من تبيين الحقّ للنّاس، ألبسوا الحقّ بالباطل لتظلّ الجماهير تحت السّيطرة كالحيوانات الأليفة.**

لممارسة «الدجل» في طقس غسل البراءة عن وجوه الظّالمين، يحاولون جاهدين إبعاد النّاس عن الاقتراب من التّفكير في الحقيقة على وجهها، يفلسفون الخيانة لأنفسهم لعلّهم يقتنعون بها أولا قبل بثّها ونشرها للفئة المستهدفة. وبدلا من أن يستخدموا نعمة الله عليهم ليعبّدوا النّاس لله، أو بدلا من أن يعلّموا النّاس أنّ الحرية أفضل من الحياة، يعبّدونهم للمستبدين، «فأخوف ما يخافه المستبدّون أن يعلم النّاس بأنّ الحرّية أفضل من الحياة»[4] ومن ثمّ يتولّون تأليه أرباب المال والسّلطة.

هناك بلدان يتجنّب النّاس فيها انتقاد سياسة الحاكم خوفا، لأنّه تمّ بالفعل إخافتهم – بالقوّة النّاعمة والخشنة على حدّ سواء – منذ زمن بعيد. فقد تمّت إخافتهم من التّعرّض بالنّقد لسياسة الحاكم، فنبتت بالفعل في نفوسهم نبتة تأليه الحاكم، فنرى مثلا مصطلحات من زمن بعيد تملأ فراغ العقول لدى الجماهير من أمثال «الخروج على الحاكم حرام»، وإطلاق فعل الطّاعة له، ولو أنصفوا عند ذكر الطّاعة في كلّ مرّة لذكروا قيود تلك الطّاعة حتى لا يتسرّب في النّفوس أنّها طاعة مطلقة، لكنّك لا تسمع مثلا كلاما عن خروج الحاكم على الأمّة، كأنّ الخطأ مكتوب على الأمّة غير مكتوب على الحاكم.

إنّ مرض تنزيه أصحاب السّلطة عن الخطأ هو مرض إنسانيّ خطير موجود حتّى في الحركات الجماهيريّة الكبيرة التي لا تستطيع التّفريق العمليّ بين مبدأ الطّاعة وحرّية النّقد البنّاء، فتراها تهدم كل فكر معارض يخرج عن النّسق.

يسوق هؤلاء المثقفون الكاذبون ألف حجّة وحجّة لدفع التّهمة عن الظّلمة وتثبيتها في وجوه المظلومين. كيف بهؤلاء إذا فارقوا الحياة غدا أو بعد غد والتقوا في دار الحقّ بالذين شنقوهم بالأمس، وعقدت المحكمة في دار الحقّ والقاضي هذه المرّة هو الحكم العدل الحقّ والسّجن هو جهنم، والنّبي صلّى الله عليه وسلّم يقول في الحديث المرفوع «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها أو قال «أنكرها» كان كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضيها، كان كمن شهدها»[5] والحديث المتّفق عليه «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»[6] فما بالنا بالذي نفّذها كاملة الأركان.

ثم تفاجئنا المحرقة

مصيبة أخرى تقتحم علينا حياتنا أيام قلائل بعد إعدام الفتية التسعة، يتفحّم فيها أجساد الفقراء في هذا الوطن في محرقة مكثّفة جدّا [7]، ففي لحظات وجيزة سقط أكثر من عشرين مصريّا قتيلا بأبشع أنواع القتل «الموت حرقا»، والحقيقة أن السّواد الأعظم من هذا الشّعب بل وربّما من الأمّة، يتفحّم جسده رويدا رويدا في محرقة الغلاء، ويتفحّم عقله في محرقة الغباء، واللّتان تتكثّفان يوميّا من أرباب المال والإعلام، والحقّ أن أرباب المال هم أصحاب المنظومة الإعلاميّة أيضا وهم الذين يدجّنون النّخبة المثقّفة ليكونوا كهنة «طقس

مرض تنزيه أصحاب السّلطة عن الخطأ هو مرض إنسانيّ خطير موجود حتّى في الحركات الجماهيريّة الكبيرة التي لا تستطيع التّفريق العمليّ بين مبدأ الطّاعة وحرّية النّقد البنّاء، فتراها تهدم كل فكر معارض يخرج عن النّسق

غسل البراءة» في معبد الاستبداد والدّيكتاتورية. والغريب أنّ حصول مثل هذه الحوادث في كل عهود الفساد والديكتاتوريّة تلقي مسؤوليتها الجنائيّة على أضعف حلقة وتلقي مسؤوليتها السّياسية على الوزير الذي يغادر مكانه دون أدنى محاسبة في الغالب، وربّما يوضع في ثلاجة الحزب ليعود لوزارة أخرى في وقت لاحق، وتلقي مسؤوليتها الأدبيّة على طرف آخر جعلته هي عدوّا لتزكّي نار الحرب عليه، في معرض ذلك يقول واحد من هؤلاء المثقّفين المدجّنين «الإخوان يحاولون صرف الانتباه عن الإنجازات»، ولا تعليق على هذا الهراء، ولو أنصف من نفسه هذا المثقّف المدجّن لاستمع إلى قصة الفرعون الذي قال للحكيم المصري «أنظر إلى النيل يجري بعدلي، وإلى الشّمس تشرق بحكمتي، ولولا رحمتي ما ملأ الخير جنبات الوادي» فرد عليه الحكيم المصري في عبارة وجيزة جدّا ومعبرّة أشدّ التّعبير «إنك تتفوّه كذبا، فالشّعب يجوع» ولو حضر الحكيم المصري بيننا لقال «إنّكم تتنفّسون كذبا وتشعّون دجلا». في حين كانت تحدث حوادث مشابهة في عهد المنتخب ديموقراطيّا يحمّلونها له جنائيّا وسياسيّا وبالعامية المعبّرة كانوا يهتفون في وجهه «طالما مانتش أد الشّيلة ماتشلش» وترجمتها إلى الفصحي «إذا لم تكن على قدر تحمّل المسوولية فاتركها» وننسى أو نتناسى في الحالتين المناقشة الموضوعيّة لأسباب مثل هذه الكوارث، وكيفيّة علاجها، لأنّك إن لمست الجرح فستكون منظومة الفساد المتجذّرة التي ترعاها الرأسماليّة العالمية المتوحّشة ووكلاؤها في المنطقة هي المسؤول الأول وهي نفسها التي وأدت أوّل نفس حرّية خالص منذ زمن بعيد، وهي نفسها التي تحاول أن تجعل المنطقة بأكملها في أقلّ حالات التّطوّر البشري المستقرّ، لأنّهم يشعرون أنّ وجودهم سيكون مهدّدا لو تحرّرت هذه المنطقة وامتلكت زمام أمورها.

كانت هذه الحوادث كفيلة بأن توقظ الضّمير الإنساني في هؤلاء، لكن لا حياة لمن تنادي فقد حدثت رابعة العدويّة وغنّوا لها على دماء وأشلاء إخوانهم، وأعدم الفتية التّسعة شنقا واعدم من قبلهم وقُتل النّاس داخل بيوتهم وفي مهاجعهم، ولم تستيقظ ضمائرهم. فكيف السبيل إلى إيجاد حلّ نحيي به ضمائرنا أوّلا؟ وكيف يمكن أن نعيش سويّا داخل وطن واحد، في ظل اتفاقاتنا أو اختلافاتنا؟ المهمّ ألاّ يطعن بعضنا بعضا غيلة، نتّفق أونختلف لكن ينبغي علينا أن نعمل عملا نافعا يبقى لنا ولأولادنا من بعدنا.

الهوامش

(1) يوليوس فوتشك، « تحت أعواد المشنقة» ترجمة، تحقيق: فارس غصوب، دار الفارابي، 1975.

(2) الحديث هنا عن الفتية المصريين الذين حكم عليهم بالإعدام شنقا بتهمة اغتيال النّائب العام المصري سنة 2015. وتمّ تنفيذ الحكم على 9 منهم بتاريخ الأربعاء 20 فبراير/شباط 2019.

(3) الحديث رواه الترمذي مرفوعا وموقوفا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(4) عبد الرحمن الكواكبي، «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» بتصرّف .

(5) الحديث رواه أبوداود عن العرس بن عميرة الكندي وله طرق وقد حسّنه الألباني رحمه الله.

(6) حديث شريف متّفق عليه من حديث أَبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(7) حادث القطار الذي وقع في محطة القطارات المركزية في القاهرة، وتسبب في مقتل وإصابة العشرات يوم 2019\2\27

حماريات

كان حلمي الكبير
أن أصبح من البشر...
لكن ما شاهدته بأمّ عيني
من أفعال البشر من فساد وشرّ...
تراجعت عن حلمي
وأصبحت سعيدا
لكوني حمارا
صراحة حمار !!!...

أتدري لماذا بقينا متخلّفين... نسير إلى الوراء على عكس
بقية الأمم؟؟؟؟ لأنّ هناك الكثير أمثالك
في مواقع المسؤوليّة وصنع القرار.

محمد الصالح الضاوي
«باحث في الإسلاميات والتصوف»
dhaoui66@gmail.com

نظرة في سياسة الإقطاع العمرية
حادثة بلال بن الحارث المزني (1)

منطلق الدراسة، هذا النصّ:

«حَدَّثَنَا حِبَّانُ بْنُ بِشْرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ آدَمَ قَالَ: حَدَّثَنَا يُونُسُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: جَاءَ بِلَالُ بْنُ الْحَارِثِ الْمُزَنِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَقْطَعَهُ أَرْضًا، فَقَطَعَهَا لَهُ طَوِيلَةً عَرِيضَةً، فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَهُ: يَا بِلَالُ، إِنَّكَ اسْتَقْطَعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْضًا طَوِيلَةً عَرِيضَةً، فَقَطَعَهَا لَكَ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُ شَيْئًا سُئِلَهُ، وَإِنَّكَ لَا تُطِيقُ مَا فِي يَدَيْكَ قَالَ: أَجَلْ قَالَ: فَانْظُرْ مَا قَوِيتَ عَلَيْهِ مِنْهَا فَأَمْسِكْهُ، وَمَا لَمْ تُطِقْ فَادْفَعْهُ إِلَيْنَا نَقْسِمُهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: لَا أَفْعَلُ وَاللَّهِ، شَيْءٌ أَعْطَانِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ لَتَفْعَلَنَّ. فَأَخَذَ مِنْهُ مَا عَجَزَ عَنْ عِمَارَتِهِ فَقَسَمَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ»[1] .

وقد وقع جدال طويل عريض حول هذا النّص، مع أخوة عرب، اعترضوا على ملاحظة سقتها، تقول: قرار الرّسول وقرار عمر!!!؟؟؟ حيث يُفهم منه قرار عمر مناقض ومخالف لقرار الرّسول صلّى الله عليه

وسلم، وهذا لا يليق أدبا وشرعا... بل لا يعدو أن يكون الأمر فهما من عمر بن الخطاب لقرار الرّسول صلّى الله عليه وسلّم:

«حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى قَالَ: حَدَّثَنَا مَنْ نَثِقُ بِهِ مِنْ آلِ حَزْمٍ وَغَيْرِهِمْ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْطَعَ بِلَالَ بْنَ الْحَارِثِ الْمُزَنِيَّ الْعَقِيقَ، وَكَتَبَ لَهُ فِيهِ كِتَابًا نُسْخَتُهُ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا أَعْطَى مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ بِلَالَ بْنَ الْحَارِثِ، أَعْطَاهُ مِنَ الْعَقِيقِ مَا أَصْلَحَ فِيهِ مُعْتَمَلًا « وَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ قَالَ: فَلَمْ يَعْتَمِلْ بِلَالٌ فِي الْعَقِيقِ شَيْئًا فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وِلَايَتِهِ: إِنْ قَوِيتَ عَلَى مَا أَعْطَاكَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ مُعْتَمَلِ الْعَقِيقِ فَاعْتَمِلْهُ، فَمَا اعْتَمَلْتَ فَهُوَ لَكَ كَمَا أَعْطَاكَهُ، فَإِنْ لَمْ تَعْتَمِلْهُ قَطَعْتَهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَمْ تَحْجُرْهُ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ بِلَالٌ: أَتَأْخُذُ مِنِّي مَا أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِ اشْتَرَطَ عَلَيْكَ فِيكَ شَرْطًا» . فَقَطَعَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِلَالٌ شَيْئًا، فَلِذَلِكَ أَخَذَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْهُ»[2] .

وقد استخلص الأخوة من هذه النّصوص ما يلي:

أولا: حكم سيدنا الرّسول صلّى الله عليه وسلم وفهم سيدنا عمر رضي الله عنه لحكمه... هكذا هو العنوان الصّائب.

ثانيا: سيدنا عمر لم يحكم برأيه بل صدر حكمه استنادا لحديث رسول الله صلّى الله عليه وسلم (من أحيا أرضا فهي له)، فسند الملكيّة: الاستصلاح. فلمّا بدا لسيدنا عمر، على ما يبدو، أنّ الصحابي لم يستصلح كامل الأرض، ولكنّه استصلح ما كان في وسعته، فكان هذا سندا لملكيّة ما أصلح، والذي أقرّه له سيدنا عمر، وبناء على هذه القاعدة، خرجت عن ملكيته الأرض التي لم يستطع إصلاحها، والتي ما زالت ميتا وقسمها سيدنا عمر.

من منطلق هذا الجدل، قرّرت أن أبحث في قضية بلال بن الحارث المزني، ببعض التّفصيل... محاولا تبيان المقصد الأول من النصّ... وهل قرار عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مخالفا لقرار سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلم؟ وما نوع الاختلاف؟ وما هو موضوع القرار العمري؟ وهل الاقتطاع تمّ لأرض واحدة أم لأكثر من ذلك؟ وما قصّة مناجم الذّهب والمعادن التي اقتطعها الرّسول لبلال بن الحارث المزني؟ وغيرها من الأسئلة...

مفهوم الإقطاع

أقطع الرّسول صلى الله عليه وسلّم بلالا بن الحارث المزني أرضا في محيط المدينة... فما معنى الإقطاع؟ وما نوعه؟ وما سياسته؟

الإقطاع اصطلاحا: هو ما يقطعه الإمام، أو الحاكم من الأراضي العامّة التي ليست ملكا لأحد، لينتفع بها في زرع، أو غرس، أو بناء، استغلالا، أو تمليكا.

كتب الدّكتور نعمت عبد الحميد مشهور في موسوعة المفاهيم الإسلاميّة العامّة (بتصرّف)[3]:

«الإقطاع لغة: هو ما يقطعه وليّ الأمر لنفسه، أو لغيره من أرض أو غيرها، من أيّ نوع من أنواع المال الثّابت، أو المنقول. واقتطع من ماله قطعة: أخذ منه شيئا.

واصطلاحا: هو ما يقطعه الإمام، أو الحاكم من الأراضي العامّة التي ليست ملكا لأحد، لينتفع بها فى زرع، أو غرس، أو بناء، استغلالا، أو تمليكا.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّل من أقطع، لا اختلاف فى ذلك بين علمائنا، وقد بيّنت كتب الفقه والتّراث ذلك، فقد جاء عن طاووس، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «عاديُّ الأرض لله ورسوله ثمّ هى لكم» [4] يعنى أنها تقطع للناس، وروى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه أقطع جماعة من المهاجرين والأنصار من أموال بنى النّضير، وكانت صفيا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم خالصة، فكان فيمن سمى ممّن أعطى أبو بكر أعطاه (بئر مجر)، وعمر أعطاه (بئر جرم) وأقطع صهيبا الصّراطة وأقطع فرات بن حبان أرضا باليمامة.

إقطاعات الرّسول

ووَفَدَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْأَبْيَضِ بْنِ حَمَّالٍ، فَاسْتَقْطَعَهُ الْمِلْحَ، فَأَقْطَعَهُ إِيَّاهُ، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَدْرِي مَا أَقْطَعْتَهُ، إِنَّمَا أَقْطَعْتَهُ الْمَاءَ الْعَدَّ، فَرَجَعَ فِيهِ.

وقــال ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اكْتُبْ إِلَيَّ بِأَرْضِ كَذَا وَكَذَا، أَرْضٌ هِيَ يَوْمَئِذٍ بِأَيْدِي الرُّومِ، قَالَ: فَكَأَنَّهُ أَعْجَبَهُ الَّذِي قَــالَ، فَقَــالَ: «أَلَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُــولُ؟» فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَــقِّ لَتُفْتَحَنَّ عَلَيْكَ، قَالَ: فَكَتَبَ لَهُ بِهَا.

وقَامَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ وَهُوَ تَمِيمُ بْنُ أَوْسٍ رَجُلٌ مِنْ لَخْمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي جِيرَةً مِنَ الرُّومِ بِفِلَسْطِينَ لَهُمْ قَرْيَةٌ يُقَالُ لَهَا حَبْرَى، وَأُخْرَى يُقَالُ لَهَا بَيْتُ عَيْنُونَ، فَإِن فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ الشَّامَ فَهَبْهُمَا لِي، فَقَالَ: «هُمَا لَكَ» قَالَ: فَاكْتُبْ لِي بِذَلِكَ كِتَابًا، فَكَتَبَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، لِتَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ، أَنَّ لَهُ قَرْيَةَ حَبْرَى وَبَيْتَ عَيْنُونَ، قَرْيَتَهَا كُلَّهَا سَهْلَهَا وَجَبَلَهَا وَمَاءَهَا وَحَرْثَهَا وَأَنْبَاطَهَا وَبَقَرَهَا، وَلِعَقِبِهِ مِنْ بَعْدِهِ، لَا يُحَاقَّهُ فِيهَا أَحَدٌ، وَلَا يَلِجْهُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ بِظُلْمٍ فَمَنْ ظَلَمَهُمْ أَوْ أَخَذَ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ شَيْئًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» وَكَتَبَ عَلِيٌّ فَلَمَّا وُلِّيَ أَبُو بَكْــر، كَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا نَسَخْتُــهُ: هَذَا كِتَابٌ مِنْ أَبِي بَكْرٍ أَمِينِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي اسْتُخْلِفَ فِي الْأَرْضِ بَعْدَهُ، كَتَبَ لِلدَّارِيِّينَ أَنْ لَا يُفْسَدَ عَلَيْهِمْ مَأْثَرَتُهُمْ قَرْيَةُ حِبْرَا وَبَيْتُ عَيْنُونَ، فَمَنْ كَانَ يَسْمَعُ وَيُطِيعُ فَلَا يُفْسِدْ مِنْهَا شَيْئًا وَلِيَقُمْ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَيْهِمَا، فَلْيَمْنَعْهُمَا مِنَ الْمُفْسِدِينَ [5].

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوّل من أقطع، وقد سار الخلفاء الرّاشدون بعد وفاته على نهجه فى إقطاع الموات من الأرض لمن يحييها ويعمل على عمارتها.

وقد سار الخلفاء الرّاشدون بعد وفاة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على نهجه فى إقطاع الموات من الأرض لمن يحييها ويعمل على عمارتها، فأقطع أبو بكر عبد الرحمن بن زيد أرضا قرب المدينة، وقد أقطع عمر بن الخطاب ابن سندر أرضا ميتة بمصر، كما أقطع الصّحابة كذلك.

أنواع الإقطاع

وقد قسم الإقطاع إلى ثلاثة أقسام: إقطاع تمليك، وإقطاع استغلال، وإقطاع إرفاق.

ومن الأحكام الفقهيّة للإقطاع:

1 - أن لا يقطع غير الإمام، إذ ليس لأحد التّصرف فى الأملاك العامّة غيره.

2 - أن لا يقطع من يقطعه أكثر ممّا يقدر على إحيائه، وتعميره.

3 - من أقطعه الإمام أرضا، ثمّ عجز عن تعميرها، استردها الإمام منه محافظة على المصلحة العامّة.

4 - للإمام أن يقطع-إقطاع إرفاق-من شاء من الرّعايا مجالس للبيع «فى الأسواق، والسّاحات العامّة، والشّوارع الواسعة، إن لم يحصل بذلك ضرر لعامّة النّاس، ولا يملك المقطوع له ذلك، وإنّما يكون أحقّ به من غيره فقط، لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو أحق به» [6].

5 - ليس لمن أقطعه الإمام إقطاعا أن يتسبّب فى إلحاق الضّرر بأحد لقوله صلّى الله عليه وسلّم «لا ضرر ولا ضرار» [7].

6 - لا يقطع، ولا يملك بالإحياء ما يضرّ بكافّة المسلمين كالكلأ، والآبار التى يشربون منها، أو المعدن سواء كان ملحا، أو نفطا لتعلّق مصالح المسلمين به، ومن هنا تملك الدّولة المناجم، ولا يملكها الأشخاص [8].

وهذا فيه نظر، لأنّ الرّسول أقطع المعادن القَبَليّة لبلال بن الحارث المزني... إضافة إلى إقطاعه العقيق...

من هو بلال المزنيّ؟

من هو الصحابيّ الجليل بلال بن الحارث المزني، موضوع بحثنا؟ وما علاقته بمناجم الذّهب؟

المعلومات قليلة عنه، حيث نقرأ في التّقريب (777)، والتّذكرة (8710) ما يلي:

«أبو عبد الرحمن المدني، روى عن النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن عمر، وابن مسعود، وعنه ابنه الحارث، وعلقمة بن العاص، وطائفة... ذكره ابن سعد في الطّبقة الثّالثة من المهاجرين... وقال غيره: مات سنة ستين، وله ثمانون سنة».

ويقال: إنّه أوّل من قَدِمَ من مُزَينة عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم - في رجال من مزينة، وذلك سنة خمس من الهجرة [9].

لا يقطع، ولا يملك بالإحياء ما يضرّ بكافّة المسلمين كالكلأ، والآبار التى يشربون منها، أو المعدن سواء كان ملحا، أو نفطا لتعلّق مصالح المسلمين به، ومن هنا تملك الدّولة المناجم، ولا يملكها الأشخاص.

قال السندي: بلال بن الحارث المزني، من أهل المدينة، كان يسكن وراء المدينة، ثم تحوّل إلى البصرة، صاحب لواء مزينة يوم الفتح [10] .

وفي مستدرك الحاكم نجد [11] :

كَانَ بِلَالُ بْنُ الْحَارِثِ الْمُزَنِيُّ أَحَدَ مَنْ يَحْمِلُ لِوَاءً مِنَ الْأَلْوِيَةِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي عَقَدَهَا لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَكَانَ بِلَالٌ يُكَنَّى أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَكَانَ يَسْكُنُ جَبَلَيْ مُزَيْنَةَ: الْأَشْعَرِ، وَالْأَجْرَدِ، وَيَأْتِي الْمَدِينَةَ كَثِيرًا، وَتُوُفِّيَ سَنَةَ سِتِّينَ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ ابْنُ ثَمَانِينَ سَنَةً.

نشاط التعدين زمن الرسول

ويبدو أن سكنى هذا الصّحابي، في الشّمال الغربي من المدينة على بعد سبعين كلم، تعرف بنشاط التّعدين منذ القدم... وقد أقطع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بلالا معادن القَبَليّة.

يقول محمد سميح عافية في كتابه: «القرآن وعلوم الأرض» [12] :

«حينما أوحى الله القرآن الكريم إلى نبيّه محمد -صلّى الله عليه وسلّم- كان العالم قد وصل إلى مرحلة من المعرفة في كيفيّة استخراج عدد من خامات الفلزات ومعالجتها، واستخلاص المفيد منها وتصنيعها، وقد اصطلح قديمًا على تسمية مكان استخراج الخامات «بالمعدن»، وفي وقتنا الحاضر نستخدم لفظ «المنجم» و«المحجر».

كان هناك نشاط تعديني وقت الرّسول الكريم، والأرجح أنّه كان نشاطًا محدودًا.

روي عن ابن عباس أنّه قال: أقطع النّبي -صلّى الله عليه وسلم- بلال بن الحارث المزني معادن القبلية جلسيها «المرتفع من الأرض» وغوريها، ومن معادن «مناجم» تلك المنطقة منجم الذّهب، وهو المنجم الذي كان لبني سليم فعرف باسمهم، وقيل لــه: «معدن بن سليم» وهو ضمن ما أقطعه الرّسول - صلّى الله عليه وسلم- لبلال بن الحارث.

وقد سبق ذكر جبل الملح في بلاد مأرب الذي أقطعه الرّسول الكريم «الأبيض بن جمال».

إذن فقد عرف استخراج الخام من باطن الأرض بحفر الصّخر بآبار عمودية وممرّات أفقيّة تحت الأرض، وهي أعمال فيها من الخطورة ما فيها».

(يتبع)

كان العالم في زمن الرسالة المحمّديّة قد وصل إلى مرحلة من المعرفة في كيفيّة استخراج عدد من الخامات ومعالجتها، واستخلاص المفيد منها وتصنيعها، والأرجح أنّ نشاط استخراج المعادن كان محدودًا.

الهوامش

(1) بن شبة، عمر (واسمه زيد) بن عبيدة بن ريطة النميري البصري، أبو زيد (المتوفى: 262هـ): تاريخ المدينة لابن شبة، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد – جدة، 1399 هـ، صص 150-151.

(2) ن.م.

(3) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – مصر: موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، صص 42-43.

(4) ذكره الحافظ وعزاه للشّافعي (1349) عن سفيان عن ابن طاووس

(5) ابن زنجويه، أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله الخرساني (المتوفى: 251هـ): الأموال لابن زنجويه، تحقيق: شاكر ذيب فياض، نشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، ط 1، 1406 هـ - 1986 م، ج2 ص 614.

(6) رواه أبو داود.

(7) حديث حسن، رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مسندًا، ورواه مالك في الموطأ عن عمرو بن يحيى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا

(8) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – مصر: موسوعة المفاهيم الإسلامية العامّة، صص 42-43.

(9) بن منصور، أبو عثمان سعيد، بن شعبة الخراساني الجوزجاني (المتوفى: 227هـ): التفسير من سنن سعيد بن منصور – محققا، دراسة وتحقيق: د سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، نشر: دار الصميعي للنشر والتوزيع، ط 1، 1417 هـ - 1997 م، 1412/4 الهامش 2.

(10) بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد، بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ): مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر: مؤسسة الرسالة، ط 1، 1421 هـ - 2001 م، ج 25 ص 180.

(11) الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: 405هـ): المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط 1، 1411 – 1990، 592/3.

(12) عافية، محمد سميح: القرآن وعلوم الأرض، نشر: الزهراء للإعلام العربي، ط 1، 1414 هـ- 1994 هـ، ص 173.

www.alislahmag.com

رفيق الشاهد
«مهندس»
chahed@meteo.tn

لا أدري كيف؟ ولا متى؟

متى؟ وكيف؟ أداتان أو عبارتان حوصرتا في ظلمة آخر النّفق ولم تستطيعا لا الرّجوع ولا التّقدم لضياع الأمام خلف الوراء في غياب بريق الأمل. لماذا؟ وكيف؟ أداتان أو عبارتان أخريان توالدتا ونشرتا ذرّيتهما ليغمروا المكان من كلّ حدب وصوب، فجاء الإخوة من كلّ شاكلة لا يشبه أحدهم ولا إحداهم الآخر، إلاّ في الفظاعة والغلظة، فاشرأبت الأعناق وتشابكت الأذرع والتفت السّاق بالسّاق، وضاعت العبارتان المتماثلتان في سوق عكاظ وسط الهرج والمرج.

الكلّ خائف من انبعاث قوم لا يشبهوننا لعلّهم يكونون يأجوج ومأجوج لا نفقه ما يختصمون فيه، فيا ليت يوجد بيننا عالِم ليفقّهنا. لقد تشابه علينا الأمر وعظم خوفنا من أن يكون هذا الشّأن من فقه الجنّ، فهل من الممكن أن يخرج لنا من بين هؤلاء المشعوذين حكيم؟

أقول قولي هذا والقطار يسير على الحديد، والطّائرات تطير في الفضاء الرّحب حاملة فلذات أكبادنا، والأيّام تتداول علينا متثائبة في روتينها بتسجيل الولادات وبدفن الأموات، فلا النّعوش كلّت ولا المقابر ملّت. وما زرعناه في رحم الأرض ينبت بإذن ربّك في البطون الخاوية، فمنهم من يسطع اسمه في السّماء التي اكتظت ولم يعد يحدق فيها أحد. يا حسرة على نجوم وسماء كانت السّفن والقوافل بها تهتدي!

أين؟ لا تسأل، لأنّ المكان تونس. بل السّؤال الذي يُطرح وتاه حوله الجميع هو من أنت؟ أو بالأحرى من أنا؟ لا أحد تعرّف إلى الوجه الذي يقابله على المرآة فتوجّس منه خيفة وتحاشاه، ولمّا ضاق به عاداه وتهجّم عليه حتّى تكسّرت كلّ المرايا. لا تسأل أين؟ لأنّ المكان تونس لا ظلّ فيها، ولا تسأل عن الصّور التي على شهادات الميلاد فأنّها أقنعة دنّستها أقلام وفرشاة الزّينة لأدوار البطولة على ركح المسرح السّياسي.

أقول قولي هذا والسّماء مازالت لا تمطر ذهبا، وإن فعلت لا يصيب المبكّرين. فلا تستغرب فإنّك لا شكّ في تونس وكلّ شيء فيها استثنائي يستحقّ سجلاّت «غينيس» للأرقام القياسيّة، وفيها كلّ دافعي الضّرائب أغبياء لأنّهم سارعوا إلى خلاص ما بذمّتهم قبل الآجال ولم ينتظروا حتّى يصدر العفو الجبائي الذي يأتي كلّ مرّة يكرم ويكافئ الأذكياء الذين تجرّؤوا فتأخّروا، فلم يدفعوا. ولا تستغرب كذلك من الأذكياء الذين أرادوا إيهام الجميع بأنّ الجدار الذي بُنِيَ على السّكة لمنع تنقّل الأرتال لا لشيء إلاّ لفت انتباه السّلطة إلى وضعهم الاجتماعي.

أين؟ لا تسأل، لأنّ المكان تونس. والسّؤال الأجدر أن يُطرح والذي تاه حوله الجميع هو متى ننضبط في الطّابور، ومتى ندرك أنّ المصطفين أمامنا وخلفنا بشر، ومتى نتفّق على الهدف الأوحد «أن تراني كما أراك إنسانا».

أقول قولي هذا والمدارس تربّي أطفالنا على القيم والأخلاق الحميدة، والقنوات التّلفزيّة تتنافس على نيل ثقة المشاهد العادي البسيط والمسكين الذي في كلّ الحالات لا يفهم. نعم، تتكرّر على لسان مقدّمي البرامج والمنشطين «المستمع والمشاهد البسيط لا يفهم».

أين؟ لا تسأل، لأنّ المكان تونس. والسّؤال الذي تُهْت وراءه هو كيف يصنع الإعلام الخبر. أنا فعلا لم أعد أفهم. كنت أظنّ أنّ دور الإعلام الإخبار بما يقع من أحداث، فإذا به يَصنع الحدث كما يُصنع الخبز ثمّ يقدّمه لنا -بارك الله فيه- ساخنا. هل معنى ذلك أنّ الإعلام شريك في كلّ الجرائم؟ هل وضع يده في كلّ ما يساق لنا من أوجاع؟

أقول قولي هذا ومحرّكات الضّمائر في أقصى جهدها والدّواليب تدور فوق سرعتها، إلّا أنّ العجلات لا تلامس الأرض والعربة لا تتقدّم مخافة أن تدهس الكرامة.

أين؟ لا تسأل، لأنّه نفس المكان الذي تداس فيه الكرامة باسم الزوّالي. ولكن من الزّوالي؟ أليس هو الجامعي والطّبيب والصّيدلي والمهندس؟ أليس هو المحامي والقاضي والوزير والنّائب في البرلمان؟ وأخيرا لعلّني فهمت. لم أستغرب حين تبيّن أنّ الرّئيس كذلك زوّالي. مسكين زوّالي تونس، افتكّوا منه كلّ شيء حتّى اسمه.

أقول قولي هذا ولم أقل كلمتي بعدُ. لن أبرح حتّى يلقى التّونسي إنسانيته ويستردّ الزّوالي اسمه المسلوب.

السّؤال الأجدر أن يُطرح والذي تاه حوله الجميع هو متى ننضبط في الطّابور، ومتى ندرك أنّ المصطفين أمامنا وخلفنا بشر، ومتى نتفّق على الهدف الأوحد «أن تراني كما أراك إنسانا».

د.عمر بن سكا
«دكتور في الفكر الإسلامي- المغرب»
omar250980@gmail.com

الخوف من التعلم وعلاقته بالفشل الدراسي

مقدمة:

بحكم انتمائنا إلى أسرة التّربية والتعليم، كثيرا ما طرحنا أسئلة تتعلّق بالأساس بأدوار المدرّس في إيجاد سياق مفعم بالحيويّة والإيجابيّة يوفّر للمتعلّمين أرضيّة مناسبة للتّعلم الذي يجدون فيه ذواتهم وتلبية لحاجاتهم المختلفة، ويكون له معنى عندهم يحفّزهم على التّعلم ويولد لديهم رغبة فعليّة في الانخراط فيه.

في البداية لابدّ من التّأكيد على أنّه من الضّروري أن نقطع مع التّصورات التّقليدية السّائدة والمهيمنة على الممارسات البيداغوجيّة في حقل التّربية والتّعليم، وخاصّة تلك النّظرة الضّيقة والاختزاليّة التي ترجع أسباب الفشل أو التّعثر الدّراسي دائما إلى عوامل خارج الذّات المتعلّمة، كما تركّز على المعالجات التّربوية الشكليّة المحصورة في الدّعم التّربوي أو المراجعة أو إعادة الدّروس، أو اللّجوء إلى الحلّ الأسهل وهو اتخاذ قرار تكرار السّنة في الفصل الدّراسي بالنّسبة للذين لم يوفّقوا في اكتساب التّعلمات الأساسيّة.

وفي المقابل يتمّ غضّ الطّرف عن أسباب أخرى مؤثّرة بقوّة كتجاهل تمثّلات المتعلّمين وعدم استثمارها بالطّرق الأمثل، ومثل استبعاد الهواجس والإكراهات الدّاخلية التي يشعر بها المتعلّمون أثناء احتكاكهم

بالوضعيّات التّعليميّة، والتي تؤثّر سلبا على وظائفهم الفكريّة وقدراتهم العقليّة. ومن الضّروري بمكان أن نستشعر كمربّين مدى خطورة أن يرفض الطّفل أو المراهق التّعلم من أساسه، وبنفس القدر ألاّ يجد هؤلاء معنى لما يتعلّمونه في المدارس. وقد حاول العديد من الباحثين في حقل التّربية التّأكيد على أنّ المتعلّم يجب أن يبني المعرفة بنفسه خطوة تلو الأخرى، حيث يتبوّأ موقع الباحث، بينما ينحصر دور الأستاذ في دور الوساطة المعرفيّة [1]، ويبقى تحفيز المتعلّم على الانخراط في بناء المعرفة مع تذليل الصّعوبات التي تعوقه في سيرورة التّعلم أولى الأولويّات في هذه الشّراكة، ما دامت المعرفة تتّسم بالديناميّة وليس بالثّبات.

يحذّر الأستاذ «محمد بوبكري» في هذا السّياق أثناء حديثه عن ثنائيّة «الحبّ والمعرفة» من إطفاء جذوة السّؤال عند الطّفل وتجاهل المجتمع لرغبته في المعرفة قائلا: «يلاحظ السّيكولوجيون أنّ الأطفال يطرحون في سنّ مبكّرة أسئلة كثيرة على ذويهم بدافع رغبتهم الفطريّة الملحّة في المعرفة، لكن غالبا ما تنطفئ هذه الجذوة بسرعة نتيجة ردود الفعل السّلبية لمحيطهم على أسئلتهم، لذلك عندما لا يستجيب المجتمع لرغبة أطفاله في المعرفة ويشجّعها عبر إثارتها باستمرار يتوقّف هؤلاء عن التلهّف على طرح الأسئلة، ويفقدون الرّغبة في المعرفة، فتنشأ أجياله على عدم الاهتمام بها» [2]. ولهذا لابدّ من تنويع الوضعيّات التّعليميّة المحفّزة، والمدرّس ذاته هو من ينبغي أن يشرف على عمليّة بناء المعرفة انطلاقا من تمثّلات المتعلّمين....

ونعتقد أن تجاهل المدرسين للأبعاد السيكولوجية المشكّلة لبنية الطفل، وللسّلوكات الغريبة التي يبديها المتعلّمون خلال انخراطهم في الوضعيّات التّعليميّة التي نلزمهم بها أمر خطير، وفيه ظلم كبير لهؤلاء الأطفال الذين يقعون بالفعل تحت تأثير مخاوف وهواجس يصطدمون بها في الفصول الدّراسية، وتشوّش على تفكيرهم وتعوق اكتسابهم للمعارف الجديدة التي نودّ تبليغهم إيّاها، وهم في أمس الحاجة إلى وسيط ينتشلهم من تلك الورطة.

(1) حقيقة الخوف من التّعلّم:

التّفسير الموضوعي لظاهرة الخوف من التّعلّم تحتّم علينا النّظر إلى سلوكات الطفل أثناء التّعلّم على أساس كونها تصرّفات وردود فعل تصدر عنه من أجل تحقيق الحماية والأمن لذاته، أو بتعبير «Serge Boimare» [3] فتلك السّلوكات لها معنى يتمثّل في كونها عبارة عن استراتيجيّات ضدّ التّعلم (Anti-apprentissage) تطفو على السطح أثناء انخراط الطّفل في الوضعيّات التعلّمية من أجل تحقيق الحماية بالنّسبة لطفل يلج المدرسة دون أن يتوفّر على الحدّ الأدنى من الكفايات النّفسية الضّرورية من أجل مجابهة إكراهات التّعلم [4]. ذلك أنّ القدرة على تحمّل وطأة الإحباط والفشل، والرّغبة في تحقيق الذّات والحصول على الاستقلاليّة تعدّ جميعها أسسا في القدرة على تطويق الرّفض الذي يستهدف الوظائف الفكريّة التي يتطلّبها التّعلّم [5]، وهو ما ليس مُؤمَّنا لدى الأطفال، ويجب على المدرّسين والمربّين أخذه بعين الاعتبار.

إنّ تجاهل المدرسين للأبعاد السيكولوجية المشكّلة لبنية الطفل، وللسّلوكات الغريبة التي يبديها المتعلّمون خلال انخراطهم في الوضعيّات التّعليميّة أمر خطير، وفيه ظلم كبير لهؤلاء الأطفال.

حينما يُعوِز المتعلمين مثلُ هذه الكفايات أو المؤهّلات النّفسيّة يجدون أنفسهم تلقائيّا أسرى أفكار سلبيّة تنبثق إزاء وضعيّات التّعلّم، وتدعوهم إلى عدم الاكتراث وبالتّالي رفض التّعلّم من أساسه[6]. والمتعلّم قبل أن يلج فصول الدّراسة لا شكّ أنّه قَدِم من محيط اجتماعي أمضى فيه زمنا من عمره وخضع فيه لتجارب متباينة قد تكون حاسمة في بلورة تمثُّلاته وشخصيته، وغالبا ما يكون عالمه محكوما بظروف تتّسم بغياب الانسجام والاتساق الذي يحتّمه اكتساب المعرفة المنّظمة، وعالم المدرسة مختلف عن عالمه الأول الذي ألفه وفيه تكون معاني الإحباط أو التّثبيط بالنّسبة إليه لا تشكّل تهديدا حقيقيّا لكينونته.

(2) كيف يتشكّل الخوف من التّعلّم؟

حينما نقترح وضعيّة تعلُّم جديدة أمام الطّفل تنبثق لديه استراتيجيّات ضدّ التّعلّم تغطّي خوفه من الفشل والشّعور بالإحباط وهيمنة المشاعر والأفكار السّلبية التي قد تكون امتداداتها قديمة جدّا، وذلك يحصل وفق المراحل التالية:

- وضعيّة التّعلّم تعني له تهديدا لتوازنه الشّخصي.
- تبعا لذلك تنبعث في نفسه أحاسيس مشوّشة، تدفعه إلى عدم تثمين التعلُّمات والإقبال عليها، وكذا رفضه التلقائي الانخراط فيها بسهولة.
- تلك الأحاسيس والأفكار تتحوّل إلى خوف عميق قد تمتدّ جذوره إلى المراحل الأولى من عمر المتعلّم.
- حينها يبدأ المتعلّم في تفعيل اضطرابات سلوكيّة باعثها الأساس هو محاولة منع أو تقليص وطأة تلك المشاعر والأفكار المخيفة يصحّ أن نطلق على تلك السّلوكات «استراتيجيّات ضدّ التّعلّم».

ومن هنا تأتي أهمّية وعي الممارسين التّربويين بهذه الأبعاد السّيكولوجيّة التي يمرّ عبرها المتعلّم أثناء انخراطه في وضعيّات التّعلّم الغريبة عنه والجديدة بالنّسبة إليه. وبالتّالي فليس كلّ فشل أو تعثّر في التّعلّم يفسّر بكون التّلميذ غبيّا أو مستهترا...

وقد يطرح سؤال هنا عن متى وكيف تتمظهر تلك السّلوكات التي يعبّر التلاميذ من خلالها عن الهواجس والمخاوف التي تسكنهم؟ ويكفي كجواب أوّلي أن نقول انظر إلى ما يقوم به جلّ تلامذتنا داخل فصول الدّراسة عند خروج الأستاذ من قاعة الدّرس، وعندما تتاح لهم فرصة التّعبير بحرّيّة مطلقة، فهنالك تنطلق العديد من الرّغبات الحيويّة الدّفينة، فيسارعون إلى تقديم أجوبة جماعيّة وعشوائيّة، وقد يندلع الشّغب في صفوفهم وأحيانا تبزغ مظاهر أخرى للسّلبيّة والعنف.

وربّما قد يختار البعض من التّلاميذ الخيار الآخر الذي لا يقلّ خطورة عن سابقه وهو الانزواء والتقوقع حول الذّات وكبت المشاعر التي يحسّون بها.

> **حينما نقترح وضعيّة تعلُّم جديدة أمام الطّفل تنبثق لديه استراتيجيّات ضدّ التّعلّم تغطّي خوفه من الفشل والشّعور بالإحباط وهيمنة المشاعر والأفكار السّلبية التي قد تكون امتداداتها قديمة جدّا**

(3) كيف نعالج ظاهرة الخوف من التّعلّم لدى الأطفال؟

من الجميل أن نبدأ بما انتهى عنده (Serge Boimare)[7] حينما قال: «لا ينبغي أن نترك منتجي ألعاب الفيديو والطّائرات الورقيّة ينفردون باسترعاء اهتمام أطفالنا وتلامذتنا...الخوف من التّعلم لا يجب أن يفقّر نظامنا التّربوي، ويحصر أدوارنا -كمربّين- في التّلقين وترديد المعرفة الجامدة في الوقت الذي يسعى فيه البعض إلى جعلنا كذلك»[8].

إنّ الخوف من التّعلّم - كنوع من الإكراه الذي يجده المتعلّم أثناء التّعلّم، وكنوع من الهواجس الدّفينة التي تسكن الأطفال المتعثّرين[9] خصوصا - يتطلّب معالجة سيكو-بيداغوجيّة تراعي هذه الأبعاد النّفسية المؤثّرة في شخصيّة الطفل، وتستلهم الحلول العميقة للانتقال بالمتعلّم من عالم الخوف والإحباط إلى عالم المعرفة في مجالها العام والكوني، وتضمن خلق الرّغبة والدّافعيّة في التّعلّم لديه.

في هذا السّياق يقترح بعض المهتمّين ما أسماه بالوساطة أو المعالجة الثّقافية التي تعدّ حلاّ ناجعا في مقاربة تلك الأسئلة المقلقة، لأنّها تتوسّل بالعودة بالمتعلّم إلى جذور الفضول المعرفي حيث يتمّ عرض تلك المخاوف والهواجس وتقديمها بشكل رمزي وتمثيلها على شكل استعارات تفتح أمام الطّفل آفاق الانتقال إلى العام والكوني ومفتاحه هو المعرفة. وفي نفس الوقت توفّر الخيط الرّابط الذي يضمن تجاوز تلك الهواجس المشوّشة على الفكر وإعادة استثمارها.

ولكي تؤتي هذه المعالجة ثمارها لا مناص من مراعاة ما يلي:

- استثمار خيال المتعلّم واقتراح استعارات مناسبة تعبّر عن تلك المواقف المقلقة والهواجس التي يشعر بها المتعلّم وتسيطر على ذهنه وتسبّب لديه الخوف من التّعلّم.
- توفير الخيط الرّابط الذي يضمن استبعاد تلك الهواجس بعد استحضارها تمهيدا للتّخلّص منها.
- فسح المجال الحرّ أمام المتعلّمين من أجل التّعبير والتّساؤل وإبداء الرّأي في سبيل إعطاء معنى لما يتعلّمونه.

ومن المقترحات الجديرة بالاهتمام في هذا السّياق هو الاعتماد على النّصوص الأدبيّة، والقصص والحكايات الأسطوريّة التي تصوّر التّجارب الأولى للبشريّة في صراعها مع قوى الشّر، وتحكي انتصارات الأبطال الخالدة ضدّ الألم والخوف، وكيف تمكّن الإنسان من تشييد صرح الحضارة على الرّغم من الإكراهات المتعاقبة. ولمَ لا أيضا الرّجوع بالأطفال إلى سير وتاريخ الأنبياء والمصلحين في سعيهم الحثيث نحو إصلاح مسار البشر والنّصح لهم...الخ

إنّ تلك الوساطة الثقافيّة قادرة على تخفيف حدّة القلق والتّوتر الذي يصاحب سيرورة اكتساب المعرفة، وخاصّة إذا تمكّن المدرس من إدخالهم في عالمه واستطاع أن يستحضر هواجسهم وانشغالاتهم في صور

لا يجب أن يحصر الخوف من التّعلم دور المربّي في التّلقين وترديد المعرفة الجامدة.ويجب التنبيه إلى ضرورة القطع مع أساليب الاستبداد والتّسلط من قبل المربّين أثناء التّعامل مع نفور التّلاميذ من المعرفة

رمزية واستعارات أو ألغاز ذات معنى يدركون مغزاها، دون نسيان الهدف الأسمى من ذلك كلّه وهو الانتقال بهم عبر تلك الوساطة إلى التّجريد والتّعميم وإدراك المفاهيم الجديدة، وأيضا التّوظيف الكامل لقدراتهم وأدواتهم الفكريّة والعقليّة. ومن باب التّوضيح نقتبس ما قاله (Boimare Serge) في هذا الصدد:

«la médiation culturelle permet le passage précieux du perceptif (où il suffit de voir pour savoir, ou l'association est directe et facile) au représentatif où il faut prendre de la distance, se détacher de ses propres images pour saisir une notion nouvelle ou accéder à une nouvelle opération mentale» (10) .

خاتمة:

في خاتمة هذا الموضوع، نقول إن هذه القراءة لظاهرة الفشل الدّراسي من منظور السيكو-بيداغوجيا لا تعني إطلاقا استبعاد العوامل الأخرى المفسّرة لتعثّر عدد ليس بالقليل من التّلاميذ الذين يغادرون المدرسة سنويّا، كما لا يعني التّنكر للمقاربات الأخرى التي تبحث في منطق التّعلّم عند الطّفل. وقد حاولنا توجيه أنظار الأساتذة والمربّين إلى رؤية مهمّة تفسّر السّلوكات الغريبة التي تصدر عن المتعلّمين ودوافعها الدّاخلية، ولعلّ ذلك يقدّم لهم بعض الحلول للمشاكل التي يواجهونها داخل الفصول الدّراسيّة. وبقي أن ننبّه إلى ضرورة القطع مع أساليب الاستبداد والتّسلط من قبل المربّين أثناء التّعامل مع نفور التّلاميذ من المعرفة.

الهوامش

(1) Élève chercheur, enseignant médiateur ; Donner du sens aux apprentissages, Britt Mari Barth ; Edition Chenelière ;2013 ; p :23

(2) محمد بوبكري، الحب والمعرفة، أقلام، منشورات الجمعية المغربية لخريجي مركز تكوين مفتشي التعليم، العدد: 7، 2015، بتاريخ 27 يوليوز 2015، ص:1

(3) Serge Boimare est Directeur pédagogique du Centre Claude Bernard à Paris. Ses travaux tendent à mettre en évidence l'appareillage psychique que l'enfant doit mobiliser pour accepter d'apprendre. La restauration de l'image de soi passe selon lui par la prise en compte des dimensions identitaires et symboliques. Pour cela, il prône la médiation culturelle avec, entre autres, l'usage des contes et récits mythologiques dans les classe.

(4) Serge Boimare, « Revenir aux sources de la curiosité avec l'aide de la médiation culturelle ». Le nouvel éducateur, N72, Octobre 2005 ; P :23

(5) Ibid. p :23

(6) La culture pour dépasser l'échec scolaire, Serge Boimare. Dialogue N135, Janv 2010; p :25

(7) l'enfant et la peur d'apprendre ; Serge Boimare ;Edition Dunod ;2004.

(8) Ibid. p24 ;(Ne laissons pas les fabricants de jeux vidéo, de feuilletons violents être les seuls à intéresser nos élèves, la peur d'apprendre des enfants ne doit pas appauvrir notre pédagogie et nous limiter au rôle de répétiteur …).

(9) هناك من يرجع المخاوف والهواجس التي تسكن الطفل في هذه الحالة إلى إكراهات تدور في فلك العنف أو السادية والتجارب المؤلمة التي عاشها هؤلاء في المراحل الأولى من حياتهم.

(10) L'enfant et la peur d'apprendre…p162

د.سالم المساهلي
«شاعر وأديب تونسي»
salemsehli@yahoo.fr

حنين

في أواخر عطلة الرّبيع، أقوم صباحا على صوت حركة الوالدة حين تشرع في مخض الحليب، حيث تعلّق والدتي (الشكوة) - وهي وعاء من جلد الماعز، يقع تطهيره ودبغه وتعريضه للشمس تعقيما - ، بحبل يُشدّ إلى عمود خشبيّ في سقف البيت، بعد أن تسكب فيها الحليب الرّائب الذي تخمّر في الوعاء الطيني (البُرمة)، ثم تبدأ في دفع الشكوة وجذبها، حتى تجهز وذلك بفصل الزّبدة عن الحليب الذي يسمّى بعد ذلك لبنا.

حين أقومُ أجد الإناء الفخّاري قد ملئ حليبًا رائبا، وإلى جانبه وعاء التّمر الذي عادةً ما يكون من نوع (العليق الذي أحبّه لعذوبته وطراوته)، مع شطر (جردقة، وهي خبز مطهو في الطابونة، التي هي فرن طيني)، من قمح صرا ورتان ذائع الصّيت، فأقبل على الوجبة بكل نهم وشراهة وانشراح، حتى إذا أتيتُ عليها، أعدّت لي الوالدة بيضتين في (البرّاد، وهو إناء طبخ الشاي)، فألتهمهما على إيقاع مخضِها ودندنتها ببعض الأغاني البَدوية الشهيرة من مثل (زعرة مصقولة الناب ..).

أطلّ من باب البيت وأتطلع إلى الحوش الواسع فأرى الدجاجات يلتقطن بعض الحَب، والكلبَ باسطا ذراعيه في ظل جدار الحوش، وأحيانا تحت شجرة التين. اتمطّط قليلا متثائبا متكاسلا، ثم أغادر البيت.

يحلو لي أن أخرج إلى الجبل الصخري المجاور (رأس الكاف)، ممتّعا بصري بالرؤية المطلقة ونسائم الربيع و عبق الحقول الممتدة، سواء ما كان منها مُزهرا ومنوّرا ومغمورا بالأعشاب ومعَدّا فقط للرّعي، أو ما كان زرعا تمشّطه النسائم، فإذا هو أشبه ما يكون بأمواج البحر الخفيفة، فلِله ما أبهى وما أروع أن تجد نفسك في أحضان البهجة وارفة العطر والشّذى والدّفء، فلا تسمع غير شدو العصافير الزاهية المغتبطة بالمشهد البديع، أو ثغاء الخرفان تنط بين العشبة والأم، أو خوار بقرة منتعشة بمأدبة الله في الأرض.

النّحل يخترق الصمت بطنينه وهو ينتقي مواقع الإغراء في الأعشاب والأزهار، وينتخب ما يروق ويحلو من الرّحيق الذي يتحول بعد ذلك إلى عسل. كنت مع باقي الأصدقاء شغوفين بجمع قوقعات الحلزون التي تكون مليئة بالعسل المجَفّف، حيث تُحسن النّحلة رصفه داخل القوقعة وتغلقها بصمغ من الحشيش الأخضر بعد أن تطحنه، فما أطيبه وما ألذه !

حين نتمرّغ في الحقول المزدانة زرابيَّ مبثوثةً، نرفع رؤوسنا إلى السّماء الزرقاء النقية الصافية، فنلمح غيمة بيضاء تتهادى في اختيال، ونلمح بعض العصافير التي تنقل الطعام لفراخها في الأعشاش، فيسعد الوجدان وينشرح الصدر ونستسلم للهوى وحديث الشوق، وطيش اللغة. أذكر ذلك، وتغيب بعض التفاصيل الغائمة التي تستدعيها الذاكرة، فأشهق بالحنين.

د. سعيد السلماني
«أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي - المغرب»
selmanisaid2015@gmail.com

في معنى العنف الإرهابي: محاولة في فهم الظاهرة من أجل عالم يسع الجميع

تمهيد:

من المقرّر عند علماء الإسلام قديما وحديثا أنّ الدّين الإسلامي الحنيف جاء لحفظ الضرورات الخمس: الدين والنفس والعقل والعرض والمال. وبناء على هذه الضرورات بنيت الأحكام والأوامر، وحرّم بالمقابل اي نوع من انواع الاعتداء عليها. من هذا المنطلق فقد تقرر في الفكر الاسلامي ان الدين الاسلامي جاء لحفظ الامن والدفاع عنه ورعايته، وما فرضت الحدود والعقوبات الا من اجل هذه الغاية.

وإذا كان الامر كذلك، فلماذا نلاحظ في السنوات الاخيرة صعودا كبيرا لجماعات العنف الارهابي التي تصطبغ بصبغة الإسلام وبمفاهيمه...؟ وما المقصود بظاهرة العنف الارهابي؟ وما منطلقاتها؟ وكيف ظهرت وتطورت؟ وما السبيل الى الخروج من هذا الواقع العنيف الى واقع أرحب يسمح للإنسان بالعيش بسلام وامن وامان؟ ثم هل ظاهرة العنف الارهابي خاصة بالانسان المسلم فقط، ام انها ظاهرة كونية تبرز كلما توفرت الشروط لذلك؟

رغم كوننا مسلمين ويضرنا ما نسمعه ونشاهده من عنف ارهابي التصق بالمسلمين، ورغم رفضهم وشجبهم له، فان الاعلام المغرض يحاول ترسيخه كحقيقة واقعية، وكأن الدين الإسلامي لا ينتشر إلا بقوة السلاح. وهذه الورقة ستسعى الى اثبات عكس ذلك، منطلقة من فرضية أن «العنف الارهابي» ظاهرة عالمية عرفها الغرب وخبرها جيدا، وتبرز كلما توفرت الشروط لذلك.

من هذا المنطلق سأعالج الموضوع من زاويتين: الاولى في معنى ظاهرة العنف الارهابي، والثانية نقف عند تاريخية الظاهرة لفهم التداعيات والحيثيات التاريخية المولدة للظاهرة، والقواسم المشتركة بين العنف الإرهابي أينما وجد، واخيرا خلاصات واستنتاجات لمحاولة الخروج من المأزق ما أمكن.

(1) في معنى العنف الارهابي

ما معنى العنف الارهابي؟

يعتبر العنف (violence)، ممارسة إنسانية قديمة متجددة، تعددت معانيها واختلفت تعاريفها باختلاف الرؤى والمقاربات المنهجية المتعددة. فقد عرّف المعجم النقدي لعلم الاجتماع العنف (violence) بأنه «سلوك لا عقلاني، يعود أصله إلى مركّب من الميول والمصالح المتخاصمة التي تسبب إلى حد ما انحلال المجموعة نفسها، وأنه في كثير من الحالات سلوك قمعي ومتلازم مع عملية اختلال النظام»[1]. والعنف حسب تعبير أمارتيا سن هو «الشكل الأكثر وضوحا لعدم الاحترام، وهو مؤشر مجتمعي بامتياز بأن الاحترام والتفاهم قد تحطّما»[2]. ويتخذ العنف أشكالا متعددة، ويمكن استجماعها في شكلين: عنف مادي (جسدي) وعنف رمزي (نفسي). وفي كلتا الحالتين فالأمر يتعلق بشخص الانسان؛ أي الهجوم على إنسانية الانسان.

يعتقد علماء الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي أن الذكريات المؤلمة والمعاناة والقلق والأمراض النفسية المختلفة، قد تدفع الانسان الى العنف احيانا، وقد يرتبط فعل العنف بمنظونة القيم الاجتماعية والدينية والاخلاقية في تحقيق التوازن الاجتماعي والنفسي. كذلك، قد يرتبط بانعدام الحرية والاستقلالية الفردية والاضطهاد السياسي والاجتماعي والكبت الجنسي واستعمال المخدرات وغيرها التي تقود الى الانحرافات في السلوك البشري[3].

وفي مقارنة بسيطة بين عنف الانسان وعنف الحيوان نلاحظ الآتي: أن الحيوان يمارس العنف من اجل البقاء، ولا يمارس العنف ضد فصيلته، فالأسد لا يلتهم أسدا عكس الانسان، ومن الملاحظ أيضا أن الحيوان لا يستطيع التفنن باستخدام وسائل وأساليب وأدوات العنف كالانسان الذي يحوّل العلم والتقنية الى وسائل ابادة وتدمير، ما يطرح علينا سؤالا حول قيمة المعرفة في ظل تبعيتها للسياسة؟ في عالم الحيوان واثناء الصراع الضعيف يخضع عندما يعجز عن المقاومة إما بالهروب او بالانبطاح على الأرض تجنبا للموت. أما في عالم

> **العنف سلوك لا عقلاني، يعود أصله إلى مركّب من الميول والمصالح المتخاصمة التي تسبّب إلى حدّ ما انحلال المجموعة نفسها، وأنّه في كثير من الحالات سلوك قمعي ومتلازم مع عمليّة اختلال النّظام.**

الانسان فلا يسير الامر بالطريقة نفسها، ذلك أن الناس لا يخضعون تلقائيا للأقوى دوما، وإنما يقومون بأعمال عنف لا تنتهي[4]. وما العنف الارهابي الاّ دليل على ذلك.

ورغم الفظاعة التي قد تحدثها أنواع العنف المشار إليها، إلا أنه يجب تمييزها عن «العنف الإرهابي». فضحايا الهجمات الإرهابية يمكن أن يكونوا من مجتمع الإرهابيين أنفسهم، بينما الهدف هو السلطة، وتكسير القواعد الإنسانية الأساسية في السلوك بطريقة مقصودة. وقد تكون الدوافع معقدة: كأن يحاول القائم بالعنف الإرهابي فرض مطالب، والتأثير في الرأي العام، أو جذب الانتباه إلى قضيته، ويمكن أن يقوم بذلك نتيجة اليأس. لكن في بعض الحالات، يوجد عامل رمزي أقوى بكثير لا يمكن إنكاره: فالمجموعة الإرهابية ضعيفة التنظيم، تروم – علاوة على جذب الانتباه- إلى الظلم الواقع عليهم، بأن تثير السلطات «القوية» عبر ردة فعل مبالغ فيها، الأمر الذي سيدمر مكانتها وسلطتها المعنوية على الصعيدين المحلي والدولي[5].

وبناء عليه، فإن العنف الارهابي هو عنف منظم يهدف الى احداث الفزع في صفوف الآمنين، منطلقا من مقولة ماكيافيلي «الغاية تبرر الوسيلـــة»[6]، فالغاية من الفعل الارهابي هو احداث الفزع ومحاولة ارباك الدولة /الدول. فالإرهاب كفعل عنيف، هو تأكيد لم ينتج عن غريزة عدوانية محضة، فلو كان الأمر كذلك لسهلت معالجته، لكن المسألة أعمق من ذلك، فهناك عوامل ودوافع متعددة؛ اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية ودينية وأخلاقية..، يجب دراستها وتفكيكها وتحليلها ونقدها بمداخل عدة أملا في الوصول الى حل ممكن.

إن السؤال ما هو الارهاب بالضبط؟ سيظل مطروحا نظرا لتداخل المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلافات الايديولوجية. لكن، بوسعنا الان – بعدما لاحت في الأفق خريطة الارهاب العالمي والتداخل القائم بين الارهاب والسلطة والمال – أن نخط دباجة أولية تسهم في تحديده فنقول: إن الارهاب ثقافة ومنهج في القتل، يرمي الى إثارة الفزع الأكبر في المجتمع وتوريط الدولة ما أمكن، فالإرهاب بهذا المعنى يسعى إلى إظهار أقوى الأسلحة عديمة الجدوى ولا قيمة لها في أيدي صناع القرار السياسي والعسكري[7]. فنحن إذن أمام عنف متمركز حول ذاته، وهذا ما أطلقنا عليه بـ«العنف الإرهابي» بدل «العنف» أو «الإرهاب». فالعنف لفظ عام يشمل كلّ أشكال العنف بما في ذلك الإرهاب بأشكاله المختلفة، أمّا الإرهاب فهو مفهوم ملغم لم يتفق على تحديده سياسيا وفكريا، وأصبح يستخدم لأغراض دنيئة تغذي العنف بدل القضاء عليه.

من هنا فالعنف الإرهابي هو كل عمل عنف مسلح يرتكب بغرض سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي أو ايديولوجي أو ديني ينتهك المبادئ العامة لحقوق الانسان. فهو إذن، عنف إرهابي موجه ومؤطر ثقافيا ومتمركز ذاتيا ومنغلق هوياتياً.

العنف الإرهابي هو كل عمـــل عنف مسلح يرتكب بغرض سياســي أو اجتماعي أو اقتصادي أو ايديولوجي أو ديني، يهدف الى إحداث الفزع في صفوف الآمنين وينتهك المبادئ العامة لحقوق الانسان.

(2) في تاريخية ظاهرة العنف الارهابي

تاريخيا استخدم مصطلح الارهاب أول مرة عام 1795م، وأصل الكلمة من اللغة terrere, وتعني التخويف، واستخدمت الكلمة لوصف أساليب استخدمها مجموعة من اليعاقبة السياسية بعد الثورة الفرنسية. وفي بداية القرن العشرين كانت كلمة الإرهابي تستخدم بصورة عامة لوصف الجهات أو الأشخاص الذين لا يلتزمون بقانون الحرب، وكل المعارضين الذين يحملون ايديولوجلية يسارية. وفي الاربعينيات من القرن العشرين استخدمت كلمة الارهاب لأول مرة من قبل سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين أثناء الحملة الواسعة التي شنتها للقضاء على سلسلة من الهجمات التي استهدفت مدنيين فلسطينيين، وأطلقوا على هذه الحملة «الحرب على الارهاب» [8] .

فالإرهاب قديم قدم الانسان، ويعتقد الباحثون أن أول منطقة عرفت الارهاب المنظم كانت أرض فلسطين في القرن الأول الميلادي عندما تمردت على حكم روما جماعة يهودية صغيرة حملت اسم «زيلوت» أو الغيورون وطالبت بالاستقلال اعتبارا من السنة السادسة للميلاد، غير أن سلطات روما نكلت بهذه الجماعة أبشع تنكيل، وكانت الجماعة بدورها تقوم بأعمال عنف بشعة، فكانت تذبح ضحاياها أمام الملأ وفي الأماكن العامة والأسواق[9].

وفي العصور الوسطى في عهد السلاجقة كانت هناك منظمة أرهبت المدنيين والحكام، وهي الطائفة الاسماعيلية النزارية المعروفة باسم الحشاشين، وكان لها مقرات في إيران وسوريا، ومن أبرز زعمائها «حسن الصباح». ومن أهم الاعمال الارهابية التي نفذتها تمثلت في اغتيال الوزير الأول للسلطان السلجوقي « ألب أرسلان» نظام الملك، فكان هذا أول عمل عنف ارهابي منظم في التاريخ الوسيط، وكان لهذه المنظمة في ذلك الزمن صدى مشابه للأثر الذي أحدثته عملية اغتيال «ارشيدوق النامسا»، أو هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 في وقتنا الراهن[10].

ورغم أن ظاهرة العنف الارهابي قديمة قدم الانسان إلا أن ثمة نقص ملموس في المصنفات التاريخية الرصينة التي ترجع بها إلى جذورها وبداياتها الأولى في الأزمنة المعاصرة، وهذا الامر جعل الظاهرة أكثر تعقيدا وسهل الطريق أمام الحاقدين وبائعي الوهم لاستغلال البسطاء في نشر العنف على نطاق واسع ولهم في ذلك مآرب أخرى.

من هذا المنطلق يمكن القول: إن العنف الإرهابي بأشكاله ومظاهره الحديثة ليس وليد القرن الواحد والعشرين، فقد انفجرت أول قنبلة في لندن زرعها أحد أعضاء احدى الجمعيات الإيرلاندية سنة 1883م، وأول هجوم انتحاري كان على رئيس وزراء روسيا سنة 1878م، وأول شحنة ديناميت وضعت في طائرة

تاريخيا استخدم مصطلح الارهاب أول مرة عام 1795م، وأصل الكلمة من اللغة terrere, وتعني التخويف، واستخدمت الكلمة لوصف أساليب استخدمها مجموعة من اليعاقبة السياسية بعد الثورة الفرنسية

كان عام 1907م من طرف المتطرف بوريس سافنكوف. أما انفجار أول سيارة مفخخة فكان في وول ستريت بنيويورك سنة 1920 ميلادية[11]. وكل هذه الأعمال العنفية البشعة وغيرها كان محركها أطماع سياسية وايديولوجية واقتصادية، ومن أجل تطبيع البشاعة يلجأ مهندسو العنف الإرهابي الى المقدس لدغدغة العواطف، وشرعنة القتل.

ماذا بعد حادثة نيوزيلاندا؟

لقد قلنا سابقا أن العنف الارهابي لا دين له، ويظهر كلما توفرت الشروط لذلك، والعنف الارهابي الذي وقع في نيوزيلاندا لا يختلف عن باقي الأنواع المنتشرة في العالم، فكل عنف مخطط له يندرج ضمن العنف الارهابي، فالحوادث مثل واقعة نيوزيلاندا كثيرة، فقد علق أمين سر اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية صائب عريقات على أن هذه الجريمة لا تختلف عن المذبحة التي نفذها المستوطن الإرهابي الإسرائيلي الذي ذبح 29 مصليا مسلما في المسجد الإبراهيمي الشريف بمدينة الخليل عام 1994، معتبرا أنها نتيجة «الأيديولوجية المتطرفة التي تزرع بذور الحروب الدينية»[12]. السؤال المطروح الان ماذا بعد واقعة نيوزيلاندا؟

بعد الرسالة التي تركها الارهابي برينتون تارنت لم يعد هناك مبرر للتأويلات والطمس الاعلامي. ومحاولة إلصاق تهمة العنف بالإنسان المسلم، فقد كانت وسائل الاعلام العالمية تحاول دائما صبغ الاسلام بأنه دين الارهاب، وعليه فإن أي مسلم كيف ما كان يشكل بعبعا يجب الحذر منه، وفي أيّ لحظة يمكن أن ينفجر. ورغم أنّ الغالبيّة العظمى من الذين يحملون صفة «مسلم» يستنكرون مثل هذه الأعمال المدمّرة، لكن «الإعلام يميل إلى التّركيز على مثل هؤلاء النّاس والجماعات مقابل تهميش 99.5 بالمائة من المسلمين الذين يرفضون هذه الجماعات المتطرّفة، الأمر الذي يشوّه الصّورة العامّة للإسلام». والكلّ يعلم أنّ الترسانة الإعلاميّة لها كل القدرة على فبركة الحقيقة. فمن يملك الإعلام يمتلك الحقيقة، بل يصنعها ويتحكّم في تفاصيلها[13]. ومما لا شكّ فيه أنّ هذه الخرافة تحطمت بعد واقعة مسجد النور بنيوزيلاندا.

إن أحداثاً عنفية كثيرة شهدتها دول مختلفة من العالم وتهديدات مختلفة بالأعمال العنيفة التي أصبحت مشكلا يؤرق العالم. حادثة نيوزيلاندا أعادت إلى الأذهان مصطلح «الإسلاموفوبيا»، فقد كتب الصحفي المرموق الدكتور «عبد الباري عطوان» في مقالة له نشرها في صحيفة «رأي اليوم» الإلكترونية؛ عن أوضاع المسلمين في الغرب عقب التفجيرات التي هزت فرنسا في شهر نوفمبر 2015 كلاما غاية في الاهمية نعيد التذكير به مرة أخرى، فقال: «..المسلمون في العواصم الغربية يعيشون أوضاعاً صعبة هذه الأيام، وتواجههم نظرات التّشكيك وأعمال التحريض في أيّ مكان يذهبون إليه»[14]. والسؤال المطروح اليوم من

> **العنف الارهابي عمل إجرامي بشع لا دين له، ومن أجل تطبيع البشاعة يلجأ مهندسو العنف الإرهابي الى المقدّس لدغدغة العواطف، وشرعنة القتل.**

صنع هذا الخوف؟ هل وحده الانسان المسلم من يتحمل المسؤولية؟ أليست السياسات العنصرية التي تمارس وبدعم من الترسانة الاعلامية الغربية هي المسؤولة عن العنف الارهابي العالمي؟ ماذا بعد واقعة نيوزيلاندا؟ هل ظاهرة العنف الإرهابي وصلت إلى نهايتها أم أنها لم تكتمل بعد؟ أسئلة كثيرة تطرح، لكن الإجابة عنها تبقى معلقة الى حين اكتمال المشهد وكيفية التعامل معها سياسيا واعلاميا. هذا ما يدفعنا الى تسجيل بعض الخلاصات لعلها تكون مفيدة في خاتمة هذا المقال.

(3) استنتاجات:

نخلص مما سبق الى الاستنتاجات الآتية:

- رغم الاهتمام العلمي والنقاش الفكري الواسع الذي حظي به مفهوم الارهاب إلا أن تحديده بشكل دقيق لم يتم الاتفاق عليه. ونعتقد بأن الامر سيظل هكذا قياسا على كل الظواهر الانسانية التي لا يمكن تحديدها تحديدا دقيقا نظرا لخصوصية الظاهرة الانسانية، لأن الفاعل المركزي فيها هو الانسان. وبما أن هذا الأخير كائن مركب فمقاربة ظاهرة العنف الإرهابي ينبغي أن تكون بمقاربة منهجية مركبة تتجاوز التخصصات والتخوم الفاصلة بين العلوم والمعارف، وخصوصا في العلوم الإنسانية إذ يصعب فصل الجوانب الاجتماعية عن مكوناتها الثقافية، فيما يتعذر فصل هذين المستويين عن المستوى السياسي، فضلا عن عناصر ومكونات اقتصادية تارة وتنموية في طور ثالث، ما يعني ضرورة الالمام بهذه الوجوه المتفاعلة والمتعددة لظاهرة العنف الإرهابي[15] .

- رغم قدم ظاهرة العنف الارهابي وانتشارها الا ان هناك نقصا في التصنيف التاريخي الجاد الذي يؤرخ للظاهرة تأريخا منفصلا دارسا إياها من كل الجوانب ومصنفا أشكالها بحسب الدوافع والأنواع والايديولوجيات.

- في حديثنا عن الارهاب ينبغي أن نميز تمييزا ضروريا بين العنف الارهابي والمقاومة. فالعنف الارهابي عنف منظم يهدف الى تحقيق أهداف محددة وتقوم به منظمات ايديولوجية مختلفة، ويستخدم أدوات وأساليب متعددة. لتحقيق غاياته، دون الأخذ بعين الاعتبار القواعد والمعايير الاخلاقية، أما المقاومة المشروعة فيها عنف محدد وموجه نحو هدف أخلاقي هو تحرير الوطن من الاختلال والاستغلال والتخلص من الظلم والقمع أو الدفاع عن النفس، وهو عنف مضاد ورد فعل على أعمال عنف تقوم بها منظمة سياسية أو دولة ضد دولة معتدية، كما يحدث في فلسطين حيث تقوم الصهيونية وأدواتها القمعية إسرائيل بأعمال قتل وهدم وتشريد وإبادة للشعب الفلسطيني الأعزل، لترد عليها ثورة الحجارة (المقاومة) دفاعا عن النفس والوطن والعيش بأمن وأمان في وطنها المستلب، وكذلك ما يحدث في العراق وافغانستان...الخ[16].

- في تحليلنا لظاهرة العنف الارهابي ينبغي التمييز بين حديثها وقديمها، وهذا يحتم علينا أن نولي اهتماما

> **ينبغي أن نميز بين العنف الارهابي والمقاومة لأنّ المقاومة المشروعة فيها عنف محدّد وموجّه نحو هدف أخلاقي هو تحرير الوطن من الاحتلال والاستغلال والتّخلص من الظّلم والقمع أو الدّفاع عن النّفس.**

واضحا لكيفية تطور الظاهرة وتحولها من السياق المحلي أو الاقليمي المحدد قديما، إلى المنحى التصاعدي الذي طرأ على الظاهرة منذ النصف الثاني من القرن العشرين، بفضل تظافر عوامل سياسية واقتصادية وتقنية، حتى بتنا نتحدث عن «عولمة العنف الإرهابي».

- وبما أن العنف الارهابي ظاهرة كباقي الظواهر الاجتماعية فإن التركيز ينبغي أن ينصب على ثقافة العنف الارهابي وكيف تتشكل وتتطور، ومن ثم فان علاج الظاهرة ينبغي أن يتجه صوب العوامل الحقيقية التي تساهم في استفحالها. من هنا أهمية التركيز على دراسة ظاهرة العنف الارهابي في اجزائها المتعددة؛ كالتقنية والارهاب، العولمة والارهاب، الاستعمار والارهاب، الاقتصاد والارهاب، الدين والارهاب، التدخل الخارجي والارهاب، الاستبداد والارهاب، الظلم والارهاب، الهوية والارهاب،...الخ.

- وأخيرا ينبغي إعادة النظر في المقاربة العسكرية التي لم تأت أكلها في القضاء على هذا الوباء، ذلك أن «العنف الذي ترتكبه الجماعات بتحريض ممنهج لا يشكل على وجه الحصر تحديا عسكريا، ولا هو كذلك في المقام الأول»[17]. والامر لا يقتضي استبعادها إطلاقا ولكن إن استدعت الضرورة التدخل العسكري فليكن الامر مدروسا بشكل جيد ومصحوبا بمبادرات مدنية فعّالة.

نختم بالقول: ليس هناك كائن انساني لا يعي خطورة العنف الارهابي، وتهديده للإنسانية جمعاء. ومهما حاول الانسان أن يسبغ المشروعية والعقلانية على أفعاله التدميرية والتخريبية، فإنه لن يقنع في الأخير سوى ذاته. والغريب في الأمر، أنه في الوقت الذي كان جدير بالعلم أن يسير في اتجاه خدمة الانسان، ها نحن اليوم نراه يسخّر من أجل تطوير وسائل وأدوات لممارسة العنف في أقصى صوره، لذا حقٌّ من قال: «إن الانسان أصبح يقتل باسم الانسان نفسه»[18]. وكأن الانسان بقدر ما يتحضر يتوحّش أو كأن تحضره من توحشه[19].

ألم يفهم الانسان بعد المغزى الحقيقي من وجوده في هذا الكون؟ أليس العنف الارهابي في النهاية دليلا على عدم فهم الانسان لحتمية الاجتماع البشري والعيش المشترك في هذا الكون الذي يسَع الجميع؟

الهوامش

(1) ج.ر. بودون وآخرون، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، دمشق، 1986.

(2) أمارتيا سن، السلام والمجتمع اليموقراطي، ت، روز شوملي مصلح، المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات، ط 1، 2016، ص، 79.

(3) الحيدري إبراهيم، سوسيولوجيا العنف والارهاب، دار الساقي، بيروت، ط،1، 2015، ص، 26.

(4) نفس المرجع، ص، 30.

ليس هناك كائن انساني لا يعي خطورة العنف الارهابي على الإنسانية جمعاء، ومهما حاول أن يسبغ المشروعية والعقلانية على أفعاله التدميرية والتخريبية، فانّه لن يقنع في الأخير سوى نفسه.

(5) نفس المرجع، ص، 80-81.

(6) نيكولاس ماكيافيلي، الأمير، ترجمة عبد القادر الجاموسي، دار الأمان، الرباط، 2006.

(7) جان ماري مولر، ترجمة عبد الجليل محمد، في مواجهة الارهاب، لا، فرنسا ليست في حالة حرب، مقال منشور على موقع معابرhttp://www.maaber.org

(8) الحيدري إبراهيم، مرجع سابق، ص، 32.

(9) ميسون أبو الحب، تاريخ الارهاب قديم، مقال منشور على موقع إيلاف.https://elaph.com/html.1168996/9/Web/Culture/2017

(10) نفس المرجع.

(11) نامق كامل، تاريخ ثقافة الارهاب، جريدة الشرق الأوسط. http://archive.aawsat.com/details.asp?issueno=10992&article=503026#.XIpEJyhKjIU

(12) تقرير قناة الجزيرة على جريمة نيوزيلاندا

(13) السلماني سعيد، الاسلام والمستقبل رؤية عالم المستقبليات الدكتور المهدي المنجرة، مجلة الاصلام الاكترونية عدد 116 السنة 5، ص، 24.

(14) السلماني سعيد مرجع سابق.

(15) أبو حلاوة كريم، ثقافة العنف بحث في الأسباب والتداعيات والحلول المحتملة، سلسلة دراسات اجتماعية، مركز دمشق للأبحاث والدراسات(مداد)، 2016، ص، 5.

(16) الحيدري إبراهيم، مرجع سابق، ص، 35.

(17) أمارتيا سن، السلام والمجتمع الديموقراطي، مرجع سابق، ص، 9.

(18) بهاوي محمد، مفهوم العنف، ضمن كتاب الفلسفة لتلاميذ الباكالوريا، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء، ط، 2، 2012، ص، 135.

(19) طه عبد الرحمان، سؤال العنف بين الائتمانية والحوارية، المؤسسة العربية للفكر والابداع، بيروت، ط 1، 2017، ص، 10

مع الدكتور
ناجي الحجلاوي

د.ناجي الحجلاوي، أستاذ مساعد بالمعهد العالي للحضارة الإسلامية بجامعة الزيتونة. ولد سنة ثلاث وستّين تسع مائة وألف في ريف «قطرانة» أحد أرياف مدينة سيدي بوزيد أين زاول تعليمه الابتدائي بمدرسة تبعد عن المنزل الذّي قضّى فيه طفولته مسافة ثلاثة كيلومترات يقطعها ذهابا وإيابا على القدمين، وكان الحرّ والقرّ يفعلان به وببقيّة التّلاميذ ما شاء له أن يفعل، وكانت عائلته دون خطّ الفقر. كان الأب مزارعا بسيطا ثمّ حوذيّا، مسؤولا عن عشرة أشخاص، وكان «ناجي» يتمتّع بالمطالعة وحفظ الدّروس أثناء رعي النّعاج أو خرفان. وكان ذلك دأبه كلّ عطلة ولا سيّما عندما كان يعود من المعهد الثانويّ الذّي انتقل إليه في مدينة سيدي بوزيد- مركز الولاية - على بعد عشرين كيلومترا من البيت. قضّى «ناجي» بهذا المعهد سبع سنوات درس فيها الجذع المشترك ثمّ شعبة الآداب إلى أن نال شهادة الباكالوريا سنةً اثنتين وثمانين. وتحوّل إلى العاصمة حيث درس العربيّة بكلّيّة الآداب. انفتح العقل على الدّرس الحضاري وتتالت الأسئلة وعلى رأسها سؤال شكيب أرسلان: لماذا تخلّف المسلمون وتقدّم غيرهم؟ وفي إطار البحث والدّرس بدأ التّأليف وبدأت الكتابة.

لأنّ هدفها هو بلورة فكر وسطيّ يتفاعل مع محيطه ويقترح حلولا لمختلف مشاكله الفكريّة والسّياسيّة والاجتماعيّة. فقد سعت مجلّة الإصلاح منذ نشأتها أن تكون حاضنة لكل الأفكار والرؤى التي غايتها إصلاح المجتمع والرقي به ومحاولة إخراجه من نفق التخلّف والانحطاط والتبعيّة كما سعت إلى التعريف بكل قلم حرّ متمسّك بهويته العربيّة الاسلاميّة، منفتح على العصر وعلى كلّ فكرة أو مشروع يهدف إلى الإصلاح.

ولأنّ الطّاقات الفكريّة الأكاديميّة السّاعية إلى الإصلاح موجودة في عصرنا الحاضر في كلّ الاختصاصات والمجالات إلاّ أنّها غير معروفة وتكاد تكون منسيّة بحكم طبيعة ماكينة الإعلام الفاسدة التي لا تعترف بهؤلاء ولا ترى فائدة في التعريف بإنتاجهم، فإنّ مجّلة الإصلاح ستعمل قدر المستطاع على تسليط الأضواء على أفكار هؤلاء ومشاريعهم. وفي هذا الإطار يأتي ركن «حوارات» الذي سيخصص للتحاور مع هذه الطّاقات حول إنتاجها الفكري وما تطرحه في مجال الإصلاح.

(1)

«التّفسير بين النّظر والأثر، الطّبري والجُبّائي أنموذجا» هو عنوان أطروحة الدكتوراه في اللّغة والأدب التي قمتم بإنجازها، فما الذي دفعكم إلى اختيار موضوع تفسير القرآن في هذا الوقت؟ ولماذا اخترت الطبري والجبائي بالذّات كنموذجين؟

مازال القرآن نصًّا مقدّسا. والقدوس اسم من أسماء الله تعالى ومعنى ذلك الحياة. فالنّصّ القرآني حيّ على مرّ الأزمنة

يفعل فعله في العقل البشري، يستفزّه ويستثيره. ومن ذلك تنبع الأسئلة وتتولّد الثّقافة. وقد كان همّ «محمّد علي باشا» من البعثات العلميّة إلى فرنسا هو أن يعيـدوا النّظر في فهم القرآن الكريم عندمـا يتسلّح العلماء بالمناهج الحديثة، بالإضافة إلى كونه كتابا يؤثّر في عدد غير قليل من سكّان هذا العالم. وقد استمرّ هذا التّأثير خمسة عشر قرنا ممّا يدعو إلى التّساؤل عمّا يحتويه هذا الكتاب حتّى يدوم هذا الدّوام ويستمرّ تأثيره هذا الاستمرار.

ولعلّ من أوجه الإجابة هو أن ينظر المرء إلى كيفيّة فهم القدامى لآيات هذا الكتاب ولمّا توزع القدامى سياسة وفكرا وعقائد، فقد كان أجدر بالدّارس أن يقارن بين علماء هذه الفِرق وكان الاختيار على أهل السّنة ويمثّلهم الطّبري المقتول والمعتزلة ويمثّلهم أبو علي الجبائي المضطهد ولم يكن الفارق الفكري والثّقافي بينهما كبيرا لأنّ أدوات المعرفة الدّينيّة لديهما واحدة.

(2)

ما هي الإشكاليّة الرئيسيّة التي قام عليها بحثكم؟

إنّ كلّ بحث جاد ومفيد ينطلق من إشكاليّة منها يبدأ وإليها يعود. وإشكاليّة هذه الأطروحة تتمثّل في: هل أنّ المعرفة الدّينيّة النّابعة من القرآن واحدة وعلى وجه موحّد عند الفِرق الإسلاميّة وعندئذ تكون عزف على وتر واحد أم هي متعدّدة ومتنوّعة؟

ولقد أفضى البحث إلى الوقوف على بعض الفوارق وأبان عن الاتّفاق الكبير فـي اتّباع آليات التّفكيـر. وإذا كان أهل السّنّة يغلّبون الأثر وأهل الاعتزال يغلّبون النّظر فإنّهم يتّفقون في الهيكل العام لأنّهم يتّبعون الآليات ذاتها كعناصر ما سمّي لاحقا بعلوم القرآن. وإذا ركّز أهل الأثر على إنتاج ثقافة دينيّة اعتقاديّة تركّز على العبادات فإنّ أهل النّظر يركّزون على إنتاج ثقافة دينيّة متقلّبة كالحياة بين جدليّة الافتراض والبُرهان.

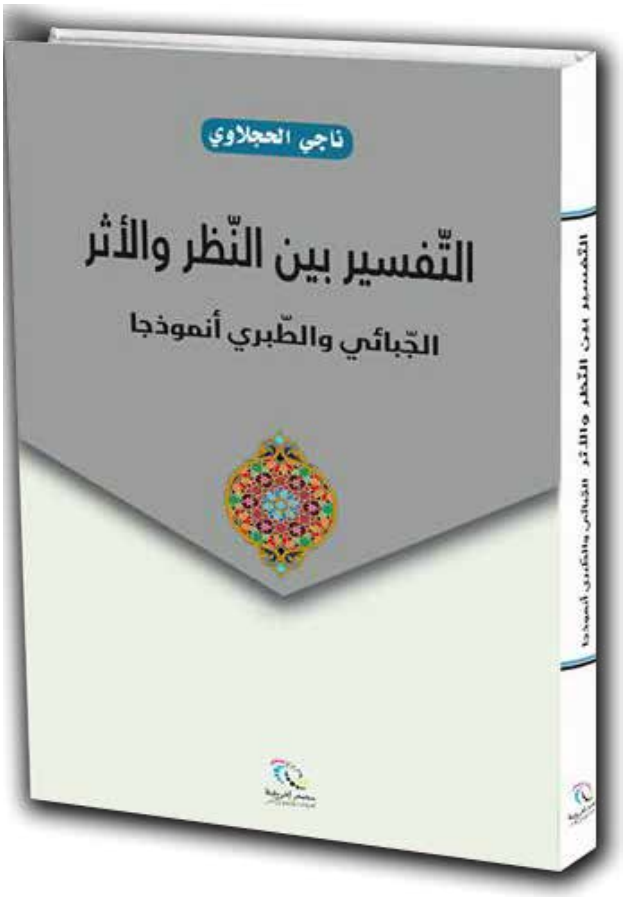

(3)

لكلّ بحث منطلقات ومراجع ، ما هي المراجع الأساسيّة التي اعتمدتموها في بحثكم؟

لكلّ بحث مصادر ومراجع. والمصدران في هذا البحث هما تفسير الطّبري وتفسير أبي علي الجبّائي. وإذا كانت تفاسير المعتزلة قد أُحرقت فإنّ الباحث الفرنسي دانيال جيماريه والباحث اللّبناني الخذر محمّد نبها قد رمّما ما أُتلف من هذه التّفاسير. وحول المصادر تؤلّف كتب تسمّى بالمراجع وفائدة المراجع أنّها تفسّر المعاني وتتوسّع في بيانها وإن كانت تعبّر عن آراء أصحابها.

(4)

ما هي أهمّ نتائج البحث؟

لكلّ بحث علميّ نتائج يقف عليها الدّارس. وهي تمثّل زبدة المجهود المبذول ودونها يبدو البحث عملا عابثا. ولعلّ من أهمّ ما توصّل إليه هذا البحث هو أنّ سنن التّفكير واحدة من بين الفِرق الإسلاميّة التي طالما كانت تدور في فلك واحد من التّعامل مع اللّغة والقناعة بضروب التّفكير في النّصّ القرآني إضافة إلى قصور هذه المداخل المعتمدة في تفسيره ولذلك لا يجد النّاظر اتّفاقا واحدا بين المفسّرين في عدد المنسوخات والنّاسخات ولا في نوع المُتشابهات أو المُحكمات. والخاص عند هذا عامّ عند ذاك فجاء الوعي الدّيني هشّا هزيلا والغريب يكمن في الاعتقاد بكونه يمثّل ذروة التّقدّم في المعرفة فكان الجهل بذلك مقدّسا عل حدّ عبارة أوليفيه روا.

(5)

ما هي الخطوات القادمة التي تنوون القيام بها لمواصلة بحثكم في الموضوع؟

على الدّارس أن يبحث ويستمرّ في بحثه، ولا يدري أين يقوده البحث، فهي مغامرة العقل والمغامرة سمّيت كذلك لأنّها مجهولة النّتائج وعلى أيّة حال فبعد الأطروحة أصدرتُ كتابيين: الأوّل بعنوان: «المنهج المعتزلي في التّفسير» والكتاب الثّاني «أعطاب المنهج في كتب التّفسير» إلى جانب بعض المقالات التّي نشرت محلّيا وعربيّا ونرجو من الله الصّحّة والتّوفيق لمواصلة البحث عساه يسفر عن ثمرات تأليفيّة أخرى.

(6)

كلمة الختام؟

كلمة الختام الشّكر الجزيل على هذه المقابلة والمحاورة الشّيّقة وأرجو لمجلتكم - مجلّة الجماهير الواعدة بالوعي العميق بقضايا الإنسان - مزيدا من التّألّق والتّفوّق والاستمرار فمشكلة المجلّات لا تكمن في ظهورها ولكنّها تكمن في عمرها الذّي غالبا ما يراد له أن يكون قصيرا. ولكنّ الإعلاميّة قصرت المسافات وكسّرت الحواجز، ومَدّت أواصر العلاقات وجسور التّواصل والتّقارب. وفيما يتعلّق بالوعي الدّيني النّابع من القرآن فهو مسار طويل يتطلّب مجهودا جماعيّا، واختصاصات متضافرة لأنّ نظريّة المعرفة المكنونة في القرآن أشدّ على الفرد من أن يضطلع بالكشف عنها.

محمد بن نصر
«باحث وأكاديمي تونسي»
birali@hotmail.com

حوار ساخن في يوم ممطر

جلست كعادتي كل صباح في مقعد من مقاعد عربة من عربات القطار، أكتب بعض الخواطر التي لازالت تتجمع دون أن أتبين الشكل النهائي الذي ستكون عليه. لم أنتبه لجليسي بالجنب ولكني لاحظت أنّه دائم النظر إليّ ومن حين لآخر يتمتم بكلام غير مفهوم وفي الأخير نطق وقد بدا حانقا: ماذا تكتب بهذه اللغة التي يكتب بها الإرهابيون؟ قلت له هذه ليست لغة الإرهابيين، هذه اللغة العربية التي حملت لك نور المعرفة في زمن كنت فيه وأمثالك لا تعلمون شيئا. قال لي لم نتعلم من الشرق شيئا لا في ماضينا ولا في حاضرنا.قلت له ساخرا وهل كنتم في ماضيكم تفرقون بين مشرق الشمس ومغربها؟ هدّأ من نبرة كلامه ثم قال لي ما يحيرني أنكم ضعفاء ولكنكم محور اهتمامنا. قلت له ذلك لأنكم علمتم مظاهر ضعفنا ولم تتبينوا سر قوتنا. قال لي و هو يستعد للنزول ما كنت أعلم أن للأوهام سحرا. قلت له أوهام ! سيأتي يوم تصبح فيه الأوهام حقائق. ابتسم وغادر متمنيا لي يوما سعيدا. نزلت بدوري وفي الطريق المؤدي إلى الفندق الذي يقيم فيه صديقي ابراهيم محمد زين كنت أتساءل أليس من الطبيعي أن يكون محاوري وأمثاله على هذه الحالة من التوجس والخيفة؟ لقد علّموهم أن حضارتهم هي الشكل الحضاري الأرقي والنهائي واستخدموا كل أساليب الجزرة والعصا لنشر قيمها التي اعتبروها عالمية واليوم يرون في عقر دارهم مسلمين وافدين و من أصول أوروبية معتزين بانتمائهم الإسلامي ومتشبعين بقيم المواطنة. بل إن بعض المناطق من أوروبا لم تعرف حضورا للمسلمين زمن قوتهم و عرفته زمن ضعفهم. ليس هذا بالأمر الذي يسهل فهمه، فضلا على هضمه. ثم كان هذا الموضوع مدار حديثي مع صديقي ابراهيم.

د.نبيل غربال
«أستاذ بكلية العلوم صفاقس»
ghorbel_nabil@yahoo.fr

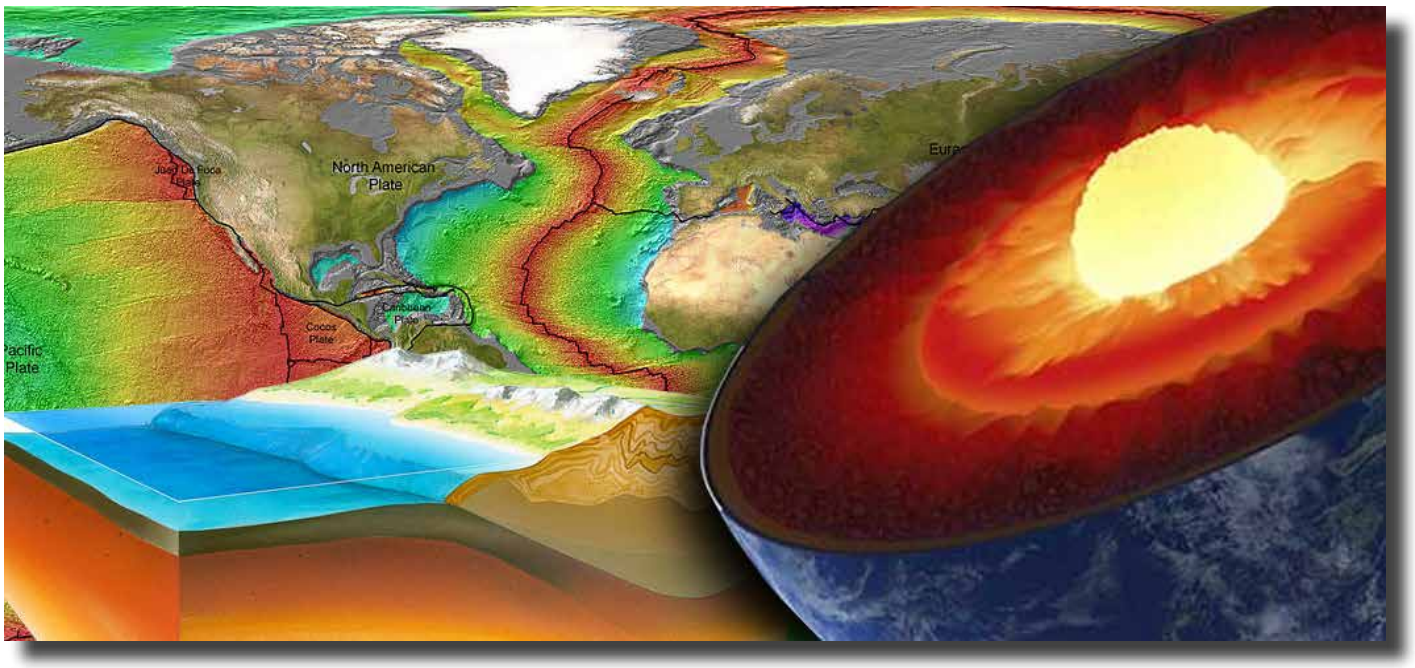

مَدُّ ٱلأَرْضِ

(1) مقدمة

بيّنا في المقال المعنون « أفلا ينظرون... ٱلَى ٱلأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ» الصّادر بالعدد 140 من المجلة أنّ للأرض سطحا ولكنّها ليست سطحا لأنّ «السّطح الحقيقي: هو الذي يقبل الانقسام طولًا وعرضًا، لا عمقًا» حسب الجرجاني (ت 471 ه) وأنّه لا وجود لسطح بلا جسم وهو ما جعل السّيوطي يقول إنّ السّطح « لا يدرك بالحسّ الاّ مع الجسم». واكتشفنا أنّ القول بأنّ جسما ما إذا وصف بأنّه مسطّحا فهو يعني إمّا أنّه ملقى على سطح الأرض أو أنّ أعلاه الممتدّ معه فيه استواء. وقدّمنا الدّليل العلمي على أنّ للأرض سطحا وهذا ليس بديهيّا في الكون المعروف إذ لا سطح للنّجوم وهي المكوّن الأساسي فيه ولا سطح أيضا للكواكب الغازيّة وهي كثيرة. لذلك يكون معنى الدّعوة للنّظر في الكيفيّة التي سُطحت بها الأرض دعوة للنّظر في الكيفيّة التي اكتسبت بها الأرض سطحها سواء بالمعنى الأصلي الذي وضع له الجذر (سطح) وعندها يكون موضوع النّظر هو الكيفيّة التي تشكّلت بها معالم سطحها أي التّضاريس كالجبال والسّهول والمنخفضات الملآى بالمياه

كالبحار والمحيطات وغيرها، أو بالمعنى الذي يُستعمل عند القول بأنّ للبيت سطحا وعندها يكون موضوع النّظر هو ما اصطلح على تسميته حديثا القشرة الخارجيّة للأرض فهي سطح الأرض بأتمّ ما في الكلمة من معنى. وقد توصّلت العلوم الحديثة الى أنّ تشكّل أعلى القشرة الصّخريّة والقشرة بذاتها ظاهرة قابلة للفهم والتّفسير وفق نظريّة موحّدة هي نظريّة تكتونيّة الصّفائح والتي سيكون لها في هذا المقال حظّ من التّناول.

نهدف في هذا المقال، من خلال تدبّر علمي للآيات التي تشير بأنّ الأرض مُدَّت، إلى تبيين أنّ تلك الآيات تمثّل عنصرا من عناصر الإجابة عن السّؤال المتعلّق بالنّظر في الكيفيّة التي سُطحت بها الأرض مثلها مثل آيات أخرى تشير إلى نفس الظّاهرة الطّبيعية أي تشكّل سطح الأرض سنتناولها في مقالات أخرى إن شاء الله.

(2) الآيات موضوع التدبر.

ملاحظتان نبدأ بهما موضوع المقال، الأولى أنّ مَدُّ الأرض يأتي في الآيات الثّلاث مصاحبا لذكر الرّواسي. وهذا يجعل عمليّة التّدبّر تتطلّب أكبر درجة من اليقظة العلميّة لأنّه لا يمكن الفصل بين المدّ وجعل الرّواسي بالإلقاء وسنرى في مقال آخر أنّ المنهج الذي اتخذناه لتدبّر الآية يوصل مباشرة الى التّطابق بين الحقيقة العلميّة والحقيقة القرآنيّة بعلاقة بهذا الرّبط بين المدّ والجبال أي أنّ المدّ بمفهومه العلمي الذي سنكتشفه ينتج عنه ضرورة القاء الرّواسي. أمّا الملاحظة الثّانية فتتعلّق بورود لفظ المدّ في الآية 3 من سورة الانشقاق «وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4)». إنّ السّياق، كما هو ظاهر، يحيل على ما سيقع مستقبلا من انقلاب في الظّواهر الطّبيعية وليس بما هو كائن الآن وخاضع للبحث العلمي وهذا أمر لا يتّسع المقال لتناوله.

لنبدأ إذا بعرض الآيات موضوع المقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الرعد، الآية 3)

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (سورة الحجر، الآية 19)

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (سورة ق، الآية 7)

(3) مَدُّ الأرض...أي أرض؟

ذكر لفظ الأرض في القرآن الكريم 461 مرّة. وهذا العدد الكبير كفيل للتّدليل بأنّه لا يمكن أن يكون قد جاء بنفس المعنى في كلّ تلك الآيات. لذلك وجب الاتفاق أوّلا على المعنى الأصلي الذي وضع له الجذر (أرض) في اللّسان العربي حتّى يتسنّى لنا تتبّع المعنى القرآني وذلك بما تسمح به أساليب البلاغة من توليد للمعاني.

نجد في منتخب الصّحاح لأبي نصر الجوهري (ت 393 هـ): «الأرض مؤنثة، وهي إسم جنس والجمع

نهدف في هذا المقال، من خلال تدبّر علمي للآيات التي تشير بأنّ الأرض مُدَّت، إلى تبيين أنّ تلك الآيات تمثّل عنصرا من عناصر الإجابة عن السّؤال المتعلّق بالنّظر في الكيفيّة التي سُطحت بها الأرض

أرضات وأرضون (بفتح الرّاء). وكلّ ما سفل فهو أرض. والأرض أسفل قوائم الدّابة، قال حميد يصف فرسا ولم يقلب أرضها البيطار».

وفي مقاييس اللّغة لأحمد بن فارس (ت 395 هـ) نقرأ:«(الأرض) الهمزة والرّاء والضّاد، أصل يتفرّع وتكثر مسائله، وأصلان لا يقاسان بل كلّ واحد موضوع حيث وضعته العرب. فرجل مأروض، أي مزكوم وبفلان أرض، أي رعدة. وأمّا الأصل الأول فكلّ شيء يسفل ويقابل السّماء، يقال لأعلى الفرس سماء، ولقوائمه أرض. والأرض التي نحن عليها، وتجمع أرَضين (بفتح الرّاء)، ولم تجئ في كتاب الله مجموعة. فهذا هو الأصل».

هذا عن اللغة أمّا في القرآن، فقد ورد لفظ الأرض بمعان مختلفة مثل: كوكب الأرض وكواكب أخرى مماثلة، نواحي الأرض وأرجائها، منطقة جغرافيّة محدّدة، التّربة، المرعى وغيرها. ولكن هل يمكن أن يأتي لفظ الأرض بمعنى لم يكن واردا في ذهن المتلقّي زمن النّزول، بدون أن يناقض المعنى الأصلي للكلمة؟

إنّ الاعتقاد بالمصدر الإلهي (أو افتراضه منهجيّا على الأقل) للقرآن من جهة وتصريح القرآن بأنّه أنزل بلسان عربيّ مبين يقتضي بأن تكون للعربيّة من الأساليب ما يمكن الخالق سبحانه من تسمية ما لم يكن معروفا بطريقة لا تصدم المتلقّي من ناحية ولا تتناقض مع ما سيتكشف لاحقا من ناحية ثانية. وهذا ما نعتقد أنّه متوفّر في لفظ أرض إذا أخذناه بمعنى القشرة الخارجيّة لها. فمن أساليب البلاغة والتي لا يمكن بدون استعمالها أن نتدبّر بعض الآيات القرآنيّة ما يطلق عليه المجاز المرسل والمتمثّل في إطلاق الكلّ وإرادة الجزء أو إطلاق الجزء وارادة الكلّ.

والسّؤال هل استعمل القرآن هذا الأسلوب حتّى نسمح لأنفسنا باستعماله رغم سماح اللّغة به؟ نعم، والأدلة عديدة وهذا مثال: قال تعالى في الآية 7 من سورة نوح «وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا» فالله تعالى أطلق الكلّ وهو (الأصابع) وأراد الجزء وهو (الأنامل) أو أطراف الأصابع وذلك على سبيل المجاز كما جاء في التّحرير والتّنوير لابن عاشور: «وأطلق اسم الأصابع على الأنامل على وجه المجاز المرسل بعلاقة البعضيّة، فإنّ الذي يجعل في الأذن الأنملة لا الأصبع كلّه فعبّر عن الأنامل بالأصابع للمبالغة في إرادة سدّ المسامع بحيث لو أمكن لأدخلوا الأصابع كلّها، وتقدّم في قوله تعالى يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق في سورة البقرة».

إنّ هذا المثال يؤكّد أنّ القرآن الكريم يستعمل لفظا وضع أصلا لجسم ما مع إرادة جزء لا يتجزّأ منه. إنّ القشرة الأرضيّة هي جزء من الأرض كما سنفصل لاحقا، لذلك فإنّ إطلاق لفظ الأرض عليها والذي يعني عادة كلّ الأرض هو من صميم البلاغة العربيّة.

من أساليب البلاغة ما يطلق عليه المجاز المرسل والمتمثّل في إطلاق الكلّ وإرادة الجزء أو إطلاق الجزء وإرادة الكلّ. لذلك فقد أطلق لفظ الأرض الذي يعني عادة كلّ الأرض على القشرة الأرضيّة التي هي جزء من الأرض

نهدف من وراء هذا المقال الى تبيين أنّ المدّ في الآيات الثلاث موضوعه القشرة الأرضيّة وذلك باتباع منهجيتنا المعتادة والمتمثّلة أولا في التّدقيق في أصل معنى الجذر«م.د.د» وثانيا في عرض ما يقوله العلم الحديث عن كيفيّة تشكّل تلك القشرة وستبرز عندها الآيات آليّا وكأنّها صيغت الآن وليس قبل 14 قرنا.

(4) المدّ لغة

نبدأ بملخص ما وجدنا في أمّهات المعاجم العربيّة عن لفظ المدّ. «مَدَّ/مَدَّ في، مَدَدْتُ، يمُدّ، امْدُدْ/مُدَّ، مدًّا، فهو مادّ، والمفعول مَمْدود» (العربية المعاصرة). «مد: المَدُّ: الجَذْبُ، والمَدُّ: كَثرةُ الماء أيّامَ المُدودِ. ومَدَّ النَّهرُ، وامتَدَّ الحَبْلُ، هكذا قالته العَرَب. والمِدادُ: ما يُكتَبُ به»(ع).

«ويقال: وَادِي كذا يَمُد في نهر كذا، أي يزيد فيه، ويقال مِنْه: قَلّ ماء رَكِيّتِنا (رَكيّة: بئر ذات ماء، جمع: ركايا وركي وركي. الإضافة من كاتب المقال) فمَدّتْها رَكِيّةٌ أُخْرَى، فهي تَمُدّها مدّا. والشيءُ إذا مَد الشيءَ فكان زيادةً فيه فهو يَمُدُّه، يقول: دِجْلةُ تَمُدُّ بِنَارَنا وأنهارَنا، والله يَمُدُّنا بها. وقال شمر: كل شيء امتلأ وارتفع فقد مدّ وأمددتُه أنا»(ت ل).

«(مَدَّ) الْمِيمُ وَالدَّالُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَرِّ شَيْءٍ فِي طُولٍ، وَاتِّصَالِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ فِي اسْتِطَالَةٍ. تَقُولُ: مَدَدْتُ الشَّيْءَ أَمُدُّهُ مَدًّا.وَمَدَّ النَّهْرُ، وَمَدَّهُ نَهْرٌ آخَرُ، أَيْ زَادَ فِيهِ وَوَاصَلَهُ فَأَطَالَ مُدَّتَهُ. وَالْمِدَادُ: مَا يُكْتَبُ بِهِ، لِأَنَّهُ يُمَدُّ بِالْمَاءِ»(م ل).

«والمَدُّ: السَّيْلُ، قَالَ الْعَجَّاجُ: سَيْلٌ أَتِيٌّ مَدَّه أَتِيٌّ ***غِبَّ سماءٍ، فَهُوَ رَقْراقِيُ. قَالَ اللِّحْيَانِيُّ(220هـ): يُقَالُ لِكُلِّ شَيْءٍ دَخَلَ فِيهِ مِثْلُهُ فَكَثَّرَه: مدَّه يَمُدُّه مَدًّا. وَقَالَ الفراءُ (207هـ): وَالشَّيْءُ إِذا مدَّ الشَّيْءَ فَكَانَ زِيَادَةً فِيهِ، فَهُوَ يَمُدُّه. ومَدَّ الدَّواةَ وأَمَدَّها: زَادَ فِي مائِها ونِقْسِها» (ل ع).

«المَدّ: السَّيْلُ» (ت ع).

«مَدَّ النهر أو البحر: زاد ماؤه وامتد. مَدَّ النهر: سال. مَدَّ ماء النهر أو البحر: زاد وكثر. مد الرافد النهر. مَدُّ من البحر: إرتفاع مائه وامتداده إلى البر» (م ر).

بعد هذا العرض الذي أردناه مفصّلا لا بدّ من تقديم الملاحظات التّالية:

- إنّ أول ما يلفت الانتباه عند تتبّع استعمال المادّة (م د د) في أمّهات المعاجم هو اقتصارها تقريبا على وصف ما ينتج عن دخول الماء في الماء سواء ماء النّهر أو ماء البحر أو الجاري على السطح. فـ«المَدُّ: كَثرةُ الماء أيّامَ المُدودِ. ومَدَّ النَّهرُ» (ع). «ويقال: وَادِي كذا يَمُد في نهر كذا أي يزيد فيه. قَلّ ماء رَكِيّتِنا فمَدّتْها رَكِيّةٌ أُخْرَى، فهي تَمُدّها مدّا». (ت ل). « والمَدُّ: السَّيْلُ» (ل ع). وَ«مَدَّ النَّهْرُ، وَمَدَّهُ نَهْرٌ آخَرُ، أَيْ زَادَ فِيهِ وَوَاصَلَهُ فَأَطَالَ مُدَّتَهُ. وَالْمِدَادُ: مَا يُكْتَبُ بِهِ، لِأَنَّهُ يُمَدُّ بِالْمَاءِ»(م ل).

إنّ المعنى الأصلي الذي يحيل إليه لفظ «مدّ» هو ذلك الفعل الذي ينتج عنه زيادة في مقدار جسم ما وحجمه على جهة الاستطالة وذلك بأن يدخل فيه مثله.

أمّا المعاني التي تذكرها تلك المعاجم والتي ترتبط باستعمال مشتقّات المادّة، فتشمل الزّيادة المتّصلة أي اتصال شيء بشيء في استطالة وتتضمّن الانسيابيّة والسّيلان والإطالة والجرّ والكثرة والامتلاء والارتفاع. وقد أوجز البعض المعنى الأساسي للفظ (مدّ) كما يلي: «يُقَالُ لِكُلِّ شَيْءٍ دَخَلَ فِيهِ مِثْلُهُ فَكَثَّرَه: مدَّه يَمُدُّه مَدًّا» وهو ما نجده منقولا في لسان العرب عن اللِّحْيَانِيُّ وكذلك عن الفراءُ قوله: «وَالشَّيْءُ إذا مدَّ الشَّيْءَ فَكَانَ زِيَادَةً فِيهِ، فَهُوَ يَمُدُّه».

نحن إذا، إزاء آليّة تحدث تغييرا في حجم الجسم ومقداره تتمثّل في دخول شيء في شيء مثله بصورة متّصلة. إنّ الحالة السّائلة هي المعنيّة مباشرة بالمعنى الأصلي للكلمة باعتبار اقتصار استعمالها تقريبا على وصف الماء وهو ما يجعل التّغيير الذي يطرأ على الحجم يتمثّل في استطالة أفقيّة وكأنّ الجسم يجرّ ويجذب وهو ما نجده في معجم الرّائد (م ر) بالصّياغة التّالية: « مدّ من البحر: إرتفاع مائه وامتداده إلى البرّ».

إنّ المعنى الأصلي الذي يحيل إليه لفظ «مدّ» هو ذلك الفعل الذي ينتج عنه زيادة في مقدار جسم ما وحجمه على جهة الاستطالة وذلك بأن يدخل فيه مثله. فهل لفعل المدّ نصيب في وصف الكيفيّة التي تشكّل بها سطح الأرض أي قشرتها الخارجيّة؟

(5) مدّ الأرض في التفاسير القديمة

قبل الإجابة على السّؤال نورد أهمّ ما جاء في تفسير لفظ المدّ الوارد في الآية 3 من سورة الرّعد «وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلأَرْضَ» كنموذج نقدر أنّه ممثّلا لما قيل في شأن الآيتين الأخريين بعلاقة بالمدّ. ففي تفسير مقاتل بن سليمان (ت 150 هـ) نجد أنّ مَدَّ ٱلأَرْضَ «يعني بسط الأرض من تحت الكعبة». أمّا في تفسير «جامع البيان في تفسير القرآن» (الطبري ت 310 هـ) فنقرأ: « يقول تعالى ذكره والله الذي مدّ الأرض، فبسطها طولاً وعرضا». وفي «تفسير القرآن العظيم» يقول ابن كثير (ت 774 هـ) «أي جعلها متّسعة ممتدّة في الطّول والعرض». ولا يشذّ ابن عاشور (ت 1393 هـ) عما قيل من قبله اذ يقول في تفسير «التحرير والتنوير»:«والمدّ البسط والسّعة».

لقد جاء في التّفاسير أنّ مَدَّ ٱلأَرْضَ يعني: بسط الأرض، بسطها طولاً وعرضاً، البسط إلى ما لا يدرك منتهاه والبسط والسّعة. والواضح أنّ المفسرين ذهبوا جميعا الى جهة ما ينتج عن المدّ وليس الى المدّ نفسه. فالجسم إذا مدّ بدخول مثله فيه فإنّ حجمه يتغيّر في استطالة وهو ما يؤدّي الى بسطه وتوسّعه.

ويبقى السّؤال مطروحا حول حقيقة مدّ الأرض وهو ما سنسعى الى توضيحه من خلال استدعاء أهمّ ما توصل اليه العلم الحديث من حقائق تتعلّق بالقشرة الأرضيّة ماهيتها وطريقة تشكّلها.

لقد جاء في التّفاسير أنّ مَدَّ الأَرْضَ يعني: بسط الأرض، بسطها طولاً وعرضاً، البسط إلى ما لا يدرك منتهاه والبسط والسّعة. والواضح أنّ المفسرين ذهبوا جميعا الى جهة ما ينتج عن المدّ وليس الى المدّ نفسه

(6) نظرية تكتونيّة الصّفائح

سادت منذ أواخر السّتينات من القرن الماضي نظريّة علميّة تفسّر جميع الظّواهر التي تحدث بالكرة الأرضيّة سواء داخلها أو على سطحها. تعتمد النّظرية على نموذج لبنية الأرض الدّاخلية تتمايز فيه الصّخور في شكل طبقات يغلف بعضها البعض. أوّل تلك الأغلفة القشرة الأرضيّة ثم يليها الوشاح ثمّ النّواة الخارجيّة والنّواة الدّاخليّة. تختلف صخور القشرة بين القارات والمحيطات. فصخور القشرة القارّية أو اليابسة خفيفة قياسا بصخور القشرة التي تبطن قيعان المحيط. تسمّى صخور القشرة القارّية «جرانيت» أمّا الصّخور التي تكون القشرة المحيطيّة تسمّى «بازلت».

يطلق العلماء على النّظريّة اسم نظريّة الصّفائح أو الألواح. فما هي الصّفائح؟ يعتمد النّموذج الذي تبنى عليه النّظريّة أساسا على الخواص الميكانيكيّة للصّخور. ففي هذا التّقسيم تعتبر القشرة وجزء من الوشاح العلوي طبقة واحدة صلبة تسمّى النّطاق الصّخري أو الغلاف الصّخري ومتوسّط سمكها 100 كم.

يطفو الغلاف الصّخري على صخور لدنة شبه منصهرة من الوشاح. يتمزّق هذا الغلاف الى مجموعة من القطع تحدّها مناطق زلزاليّة وبركانيّة وتتحرّك تلك القطع إمّا مبتعدة أو مقتربة من بعضها البعض بفضل تيّارات الحمل الحراري التي تعتمل في الوشاح. تسمّى كلّ قطعة صفيحة. تتشكّل الصّفائح إمّا من قشرة محيطيّة وهذا الغالب أو من جزءين، واحد قاريّ والآخر محيطيّ أو من كتلة قاريّة وهي قليلة العدد. ورغم اختلاف القشرتين فلقد استطاع العلماء التّعرف على أصل كلّ واحدة منهما والآليّة التي تسبّبت في نشأتها.

(7) المَدُّ: آلية تشكل القشرة الأرضية

كانت الأرض قبل 4540 مليون سنة - مباشرة إثر اكتساب حجمها النهائي الذي تشكل بالارتكام- تبدو كجحيم جهنّمي اذ كانت حرارتها أكثر من 1200 درجة ولم تكن حينها سوى كوكب بدائيّ متكوّن من صخور منصهرة وتفتقر إلى سطح صلب. ومع الزّمن، تصلّبت بلّورات بعض المعادن وطفت فوق سطح المهل مشكّلة قشرة أوّليّة رقيقة من المحتمل أن تكون بازلتيّة. لم يبق شيئا من تلك القشرة حيث أنّ الأرض تعرّضت في وقت مبكر جدّا قبل 3900 مليون سنة تقريبا الى هطول كميّات كبيرة جدّا من النّيازك دمّرت تلك القشرة. ومع الحرارة التي اكتسبتها في نهاية مرحلة الارتكام بدأت تتراكم تدريجيّا حرارة إضافيّة ناجمة عن تفكّك العناصر المشعّة وقد أدّى ذلك التّسخين البطيء الى انصهار جزء صغير من داخل الكوكب ممّا أفضى الى اندفاع المهل البازلتي الى الأعلى. تبرّد ذلك المهل وأعطى قشرة ثانويّة مثل التي تشكّل قاع المحيط اليوم. لكن كيف؟

كانت الأرض قبل 4540 مليون سنة تبدو كجحيم جهنّمي اذ كانت حرارتها أكثر من 1200 درجة ولم تكن حينها سوى كوكب بدائيّ متكوّن من صخور منصهرة وتفتقر إلى سطح صلب

أ- مَدُّ القشرة المحيطية

الإجابة عن السّؤال تقبع في المحيطات. لنأخذ مثلا المحيط الأطلسي ونرى كيف تنشأ القشرة المحيطيّة. تشقّ القشرة المحيطيّة سلسلة جبال طوليّة تقع تحت ماء المحيط بحوالي 2 كم. تمتدّ هذه السلسلة على مسافة آلاف الكيلومترات بالتّوازي تقريبا مع سواحل افريقيا وأمريكا. يتكوّن في منتصف هذه السلسلة ذات العرض المقدّر بعشرات الكيلومترات أخدود عميق جدّا يصل عمقه الى حوالي 4 كم تحت سطح الماء، ويمثل مكان تولّد الصّخور الجديدة. عند خروج الصّهارة من باطن الأرض وملامستها لماء البحر تتصلّب مكوّنة صخورا ناريّة بازلتيّة وتعطي أرضيّة قاع المحيط. لكن الأمر لا يقف عند هذا الحدّ إذ أنّ تدفّق المهل لا يتوقّف. فكيف ستتكدّس الصّخور الصّاعدة من الدّاخل على ظهر الأرض وهل سيتولّد عن تراكمها جبال شاهقة من البازلت؟ لم يحدث مثل هذا الأمر رغم ملايين السّنين من التّدفق المستمر للصّهارة. فليس هناك جبال تعلو سطح المحيط الأطلسي مثلا ولا سطح المحيط الهادي أو الهندي أين توجد نفس الظّاهرة.

يفسّر العلماء ذلك بأنّ الصّخور المتدفّقة باستمرار تتمدّد أفقيّا فينتج عن ذلك توسّع لقاع المحيط وتباعد لقارتي أفريقيا وأمريكا وهو ما تؤكّده القياسات التي تقوم بها الأقمار الصّناعية. تتكوّن القشرة المحيطيّة إذا بهذه الطّريقة أي بتدفّق مستمر للمهل، فيدخل اللاّحق في السّابق، فيزيد فيه ويكثره أي يمدّه مدّا بأتمّ ما في الكلمة من معنى.

تتدفّق الصّخور المنصهرة من جوف الأرض باستمرار، فتتمدّد أفقيّا مكوّنة قشرة جديدة لقاع المحيط سالكة في ذلك سلوك الماء لكن على مقاييس زمنيّة مختلفة. فعندما يدخل ماء نهر في نهر آخر فإنّه يزيد فيه ويكثره ويغير حجمه على جهة الاستطالة (أي وبكلمة واحدة: يمدّه) وذلك بشكل آني نظرا للإنسيابيّة العالية التي يتّصف بها الماء، كذلك تسلك الصّهارة المتدفقّة من أخدود السلسلة الجبليّة الموجودة في وسط المحيط بصورة أبطأ ولكن وفق نفس القانون الفيزيائي، إنّها تتدفّق باستمرار، فتدخل فيما سبقها لتزيد فيه وتكثره على جهة الاستطالة لتشكّل القشرة المحيطيّة البازلتيّة أي أنّ القشرة البازلتيّة تتكوّن بآليّة المدّ بالمعنى الدّقيق للكلمة. وبما أنّ حجم الأرض ثابتٌ غير متغيّر فإنّ الصّخور الجديدة المكوّنة لقاع المحيط تعوّض أخرى تعود الى باطن الأرض. كيف؟

تتحرّك القشرة المحيطيّة أفقيّا مبتعدة عن سلسلة الجبال التي ولدت في رحمها. وبقدر ما تبتعد تنخفض درجة حرارتها وتزداد ثقلا. وبعد حوالي 200 مليون سنة تكون قد بردت بمقدار يمكنها من الغوص من جديد في باطن الأرض تحت تأثير وزنها، وهو ما يحدث الآن على طول السّاحل الغربي لأمريكا الجنوبيّة. ولهذه العودة نتيجة حاسمة في تشكيل القشرة القارّية.

تتكوّن القشرة المحيطيّة عبر تدفّق مستمر للمهل، فيدخل اللاّحق في السّابق، فيزيد فيه ويكثره أي يمدّه مدّا بأتمّ ما في الكلمة من معنى.

ب- مَدُّ القشرة القارّيّة

إنّ عودة القشرة البازلتيّة الى الوشاح داخل الأرض النّشطة تنتج مهلا جديدا له تركيب مختلف عن البازلت وأقرب الى تركيب صخر الجرانيت المكوّن للقشرة القارّية التي ستتشكّل بنفس الآليّة أي المدّ. ترتفع الصّهارة ذات التّركيب الجرانيتي الى الأعلى وبمرور الوقت تبدأ كتل من الصّخور الخفيفة في التكدّس معلنة ولادة قشرة جديدة والتي ستتمدّد بدورها نظرا لسلوك الصّخر الشبيه بالسّوائل على المقياس الزّمني الجيولوجي (ملايين السّنين). تشهد بعض الصّخور بوجود قارّات منذ 3.8 مليار سنة.

إنّ إعادة التّدوير وإنتاج مهل جرانيتي لا يمكن أن يحدث الاّ في كوكب تعمل فيه الصّفائح التكتونيّة وهو ما حدث فعلا قبل 3 الى 2.5 مليار سنة. فبوجود تكتونيّة الصّفائح يتكوّن المهل الضّروري لظهور القشرة الأرضيّة من خلال الارتفاع العامودي من باطن الأرض الى السّطح حيث يتمدّد المهل أفقيّا على مساحات كبيرة جدّا .

(8) خاتمة

سواء أكانت قارّيّة أم محيطيّة، تنشأ القشرة الأرضيّة دائما نتيجة انصهار جزئي لصخور الوشاح الذي يولد المهل. يتبلور المهل بسرعات مختلفة لكي يعطي في الأخير القشرة الأرضيّة. يؤدّي التّدفق المتواصل للصّهارة الى ازدياد مقدار وحجم الصّخور المتبلورة على جهة الاستطالة أي الى تمدّدها أفقيّا. إنّ الصّخور المنصهرة الصّاعدة من الوشاح تمدّ التي سبقتها لأنّها تكثرها (تزيد فيها وتواصلها) بشكل متواصل وتجعل حجمها يزداد في استطالة.

لقد أجاب العلم الحديث عن السّؤال المتعلّق بالكيفية التي جعل بها للأرض سطحا بمعنى قشرة خارجيّة. إنّها آلية المدّ. لقد بدأت تلك الآليّة في العمل منذ 4 مليار سنة تقريبا مكوّنة قاع المحيط الذي كان يغمر سطح القشرة الأرضيّة (وهو سطح الأرض) بالكامل قبل 4.4 مليار سنة. تشهد الصّخور الرّسوبيّة بوجود الكتل القارّية الرّاسخة منذ 3.8 مليار سنة. تبيّن نماذج المحاكاة الحسابيّة أنّ القارّات الحاليّة بدأت تتشكّل قبل 4 مليار سنة وأنّ 80 % منها تكوّن قبل 2.5 مليار سنة . تتميّز صخور القشرة القارّية عن صخور القشرة المحيطيّة بكثافة أقلّ لذلك فهي تبقى دائما طافية على صخور الوشاح شّبه السّائلة أمّا صخور القشرة المحيطيّة فعمرها قصير لأنّ كثافتها العالية تدفع بها من جديد في دورة بمائتي مليون سنة الى جحيم الأرض ليعاد تدويرها.

المراجع

(ع): (مد) معجم العين-الخليل بن أحمد الفراهيدي-توفي: 170هـ /0786م

(ت ل): (مد) تهذيب اللغة-أبو منصور الأزهري -توفي: 370هـ/980م

(م ل): (مد) مقاييس اللغة-أحمد بن فارس-توفي: 395هـ/1005م

(ل ع): (مدد) لسان العرب-ابن منظور الإفريقي-توفي: 711هـ/1311م

(م ر): معجم الرائد (مَدَّ) الرائد-جبران مسعود-صدر: 1384هـ/1965م

الهادي بريك
«باحث وكاتب - ألمانيا»
brikhedi@yahoo.de

من هو الله؟
(بحث في أسمائه الحسنى)
الحلقة الخامسة : الحكيم

ورد هذا الإسم المنسوب إلى الحكمة في الكتاب العزيز تسعين مرّة ومرّة أخرى وهو في المرتبة الثّالثة من حيث وروده مفردا لا مركّبا مثل (خير الحاكمين أو أحكم الحاكمين) أو مقرونا بإسم آخر من مثل (العزيز الحكيم) وذلك بعد أن احتلّ إسم (العليم) المرتبة الأولى واحتلّ إسم (الرّحيم) المرتبة الثانية، وهذا يعود بنا إلى إحدى أكبر الخلاصات التي أثيرت في أول حلقة من حلقات هذه السّلسلة (من هو الله) وهي أن الله سبحانه يريد أن يعلمنا أنّه : عليم بنا أوّلا، فإذا تعلمنا ذلك واعتقدناه علمنا أنّه سبحانه رحيم ثانيا فلا نيأس من رحمته بسبب علمه الواسع الذي لا يندّ عنه شيء، فإذا إعتقدنا ذلك علمنا سبحانه أنّه حكيم وهو ما نراه اليوم إن شاء الله.

ورد الإسم المنسوب إلى الحكمة 38 مرّة معرّفا (الحكيم) و40 مرّة نكرة (حكيم). كما ورد مقرونا بأسماء أخرى منها العزيز وهو الإقتران الأغلب بين هذين الإسمين إذ إقترنت الحكمة هنا بالعزّة في 47

موضعا ومنها صفة العلم بمقدار 25 مرّة ثمّ صفة الخبرة بثلاث مرّات، كما اقترن بأسماء أخرى منها : التّوبة والحمد والعلوّ والسّعة. كما يكون الإقتران بالعلم من لدن هذا الإسم (الحكيم) أحيانا بتقديم الحكمة فهو الحكيم العليم (أو حكيم عليم) وجاء ذلك في سبعة مواضع وأحيانا بتقديم العلم فهو العليم الحكيم أو (عليم حكيم) وجاء ذلك في ثمانية عشر موضعا ليكون الإقتران الإجمالي بين إسمي العلم والحكمة في 25 موضعا. وهكذا كما هو الحال مع أكثر الأسماء إذ يرد الإسم مفردا ومضافا ومركّبا أي مقترنا كما يرد الإسم معرّفا ونكرة وذلك لنعلم أنّ الله سبحانه حكيم حكمة تتقلّب في كلّ الصّور والأحوال وذلك بحسب السّياق طبعا كما هو معلوم.

صفة الحكمة نالت أشياء أخرى

جاء في القرآن الكريم أنّ الذّكر حكيم وأنّ القرآن حكيم وأنّ الكتاب حكيم وهي أسماء ثلاثة لمسمّى واحد وهو القرآن العظيم. ومن باب أولى إذا كان الله حكيما أن يكون كلامه سبحانه حكيما وأن يكون الكتاب الأخير الذي اختاره دستورا هاديا للبشريّة جمعاء قاطبة حتّى يوم القيامة متربّعا على عرش الحكمة. كما نالت صفة الحكمة لقمان الحكيم (ولقد آتينا لقمان الحكمة) وأوتي بعض الأنبياء حكما وعلما من مثل سيدينا موسى ويوسف عليه السّلام وذلك لمّا بلغا أشدّهما ومن باب أولى وأحرى مرّة أخرى أن ينال النّبي (كل نبي) من الحكمة حظّا وفيرا إذ هو من يهدي به الله النّاس إليه.

ما هي الحكمة ؟

ترد الحكمة في القرآن الكريم نسبة إلى الحكم ونسبة إلى الميزان معا. الله سبحانه حكيم بمعنى أنّه يحكم لا معقّب لحكمه سواء حكما قدريّا (جريان الشّمس مثلا) أو حكما شرعيّا للإنسان فيه حرّية الإختيار وهو سبحانه حكيم بمعنى أن تكون تشريعاته وأقداره متوازنة معتدلة، ذلك أنّ الحكمة في القرآن الكريم مرادفة للميزان إذ قال سبحانه مرّة (وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) وقال مرّة أخرى (وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة) ولمّا أخبر عن وظيفة محمد عليه الصّلاة والسّلام قال (ويعلّمهم الكتاب والحكمة) ولمّا أخبر عن أمّهات المؤمنين قال (وأذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة). وغير ذلك ممّا يعلمنا أنّ الله سبحانه أنزل إلينا كتابين في الحقيقة (عدا الكتاب المنظور أي الكون والتّاريخ) وهما : القرآن الكريم وهو الكتاب المسطور في زماننا وكان في زمانه عليه السّلام وزمان الصّحابة كتابا مسموعا وليس مسطورا. والكتاب الثاني المنزل هو : الميزان الذي عبّر عنه في مواضع أخرى بالحكمة كما مرّ بنا هنا. وبذلك يستنبط المرء بيسر أنّ الميزان هو الحكمة وأنّ الحكمة هي الميزان وهي وظيفة محمد عليه الصّلاة والسّلام وأنّها منزلة جنبا إلى جنب مع القرآن الكريم. وبذلك ندرك أنّ حكمة الله سبحانه هي أنّه حكيم في الخلق وفي التّشريع، فهو تشريع ينطق به كتاب (أحكمت آياته) وهو (القرآن الحكيم) وأنّ أنبياءه حكماء وأنّ الحكمة هي الميزان

أنزل الله سبحانه إلينا كتابين (عدا الكتاب المنظور أي الكون والتّاريخ) وهما : القرآن الكريم والميزان الذي عبّر عنه في مواضع أخرى بالحكمة.

العقلي الذي به يميّز المرء بين مستويات التّشريع ومقاصد الخلق ومواضع التّنزيل وإنّما نسب ذلك إليه عليه الصّلاة والسّلام لأنّ سنّته وسيرته معا يعلّمان النّاس الحكمة في أجلى صورها. الحكمة في حدّها التّقليدي المعروف هي وضع الشّيء في مكانه المناسب بما ينشئ ثقافة الإجتماع وينمّي فقه التّنظم والتّراتبية المعروفة عند النّاس عرفا فلا يقدّم الصّغير على الكبير في التّهنئة والتّعزية والصّفوف وغير ذلك ممّا وقر في الجبلات وإنّما جاء الدّين يذكّيه ويذكّر به وليس هو له منشئا إبتداء.

أي علاقة بين الحكمة حكما والحكمة تناسقا

بداهة لا بدّ من علاقة بسبب الإشتراك في الجذر اللّساني إشتراكا كلّيّا. العلاقة هي أنّ من يكون حكيما بمعنى الحكم والسّلطان والهيمنة والقهر لا يكون كذلك إلاّ عندما يكون حكيما بمعنى أنّه يضع كلّ شيء في مكانه المناسب زمانا وحجما وغير ذلك من الدّقائق التي لا يحيط بها المرء سيّما في تناسق الأكوان وتناغم الأقدار وتوافق الأشياء وتراتب الأمور وكلّ ذلك يعلم بالتّدبر والتّفكر والتّأمل. فلا يكون الحكيم مطاعا حكما حتّى يكون محلّ إعجاب حكمة ولذلك يطيع النّاس ملوكهم الذين يحكمونهم بالحكمة أي بوضع السّيف في مكانه حزما لقهر الظلمة والسّفاحين والبغاة والقلم في مكانه تنويرا للعقول. أمّا في شأن الله سبحانه فهو الحكيم قهرا إذ لم تندّ عنه الشّمس والقمر والنّجوم والسّموات والأرض التي يمسكها أن تزول وما تخلف شيء من خلقه عن مساره المداري قيد أنملة وهو في الآن نفسه سبحانه الحكيم أقدارا غلابة إذ يأخذ الظّالم عندما تأخذه الغفلات الطّويلة وعندما يظنّ النّاس أنّ الأمر له إستتب وكلّما غلب اليأس على النّاس وركن الظّالم إلى أمره أملى الله له ومدّ ثمّ يأخذه أخذ عزيز مقتدر. وهو حكيم سبحانه في تشريعاته كما سنرى بعد قليل بحوله سبحانه. الحكمة إذن حكما وقهرا والحكمة ترتيبا وتساوقا وتجاوبا وتناظما وتوافقا ينبجسان من وعاء دلالي واحد.

قراءة سريعة في إقتران الحكمة ببعض الأسماء الأخرى

رأينا فيما أنف ذكره أنّ الحكمة مقترنة مع العزّة في زهاء خمسين موضعا وذلك يعني أنّ الحكيم سواء بمعنى القهر والغلبة أو بمعنى التّناظم والتّوافق لا بدّ أن يكون عزيزا أي قويّا قديرا قهارا يعزّ أن تجد له نظيرا. فلا بدّ للحكيم من عزّة يمضي بها حكمته ومن كان حكيما بلا عزّة فهو يجلس على عرش من ورق سرعان ما يهوي به في السّفوح، ومن كان حكيما بلا قدرة وعزّة تجعله ينفذ إلى الأشياء والأمور لتكون تحت سلطانه فيناظم بينها ويوافق فلا حكمة له. لذلك لا بدّ للحكمة بالمعنيين من عزّة أي من قدرة وغلبة وقهر.

كما إقترنت الحكمة بإسم العلم إذ لا يكون الحكيم حكيما حتى يحيط بالعلم والخبرة سواء تعلق الأمر بعلم الغلبة والقهر والسّلطان أو بتوفير التّوافق والتّناظم والتّراتب والعلاقات الجميلة بين الأشياء والأمور. لا بدّ إذن للحكمة من علم. والأمر نفسه بالنّسبة لإقتران الحكمة بالخبرة لأنّ الخبرة ضرب من ضروب العلم. كما

أنّ الحكيم سواء بمعنى القهر والغلبة أو بمعنى التّناظم والتّوافق لا بدّ أن يكون عزيزا أي قويّا قديرا قهارا يعزّ أن تجد له نظيرا ولا بدّ أن يكون عليما فلا يكون الحكيم حكيما حتى يحيط بالعلم والخبرة

إقترنت الحكمة بالتّوبة حتّى لا ييأس النّاس من رحمة الله سبحانه فتغلب عليهم ـ أو تبهرهم ـ صفة الحكمة الإلهيّة قهرا أو توافقا، فيقنطون ويتسلّل إليهم الشّيطان ليوحي إليهم أنّ مثل هذا الإله لا يأبه بالعبد الصّغير الحقير أن يتوب عليه لأنّه عليّ حكيم قهّار في عليائه وهو الظنّ الواهم نفسه الذي سال في أفئده المشركين في مكّة قديما، فإتخذوا لهم واسطة تقرّبهم زلفى من الله سبحانه ولك هنا أن تتفكّر في تسلّل العقائد الفاسدة كيف تنبجس في الأفئدة حتّى لتكون لها لأوّل وهلة وجاهة ومعقوليّة ولذلك إمتلأ القرآن الكريم كلّه إمتلاء عجيبا بالكشف عن هويّة الله سبحانه. نحن اليوم ـ مسلمو الوراثة ـ لا ندرك هذا ولكن الذين يفيئون إلى الإسلام من ظلمات المسيحيّة أو دركات اليهوديّة أو غيرهما من الدّين الضّال يكتشفون بيسر يسر العقيدة الإسلاميّة. كما اقترنت الحكمة بالحمد إذ أنّ من يكون حكيما قهرا أو توافقا لا يكون عند عباده عدا حميدا أي مثار حمد، فإن لم يحمده عباده أو لم يفعلوا ذلك كما هو مطلوب منهم فإنّ الخلق المكره (الخلق الكوني) لله سبحانه حميد ولكن لا ندرك لا حمدهم ولا تسبيحهم. ألا ترى كيف أنّ النّاس يحمدون ملكهم إذا كان حكيما إدارة وعدلا أو حكيما ذوقا، فيجعل كلّ شيء في مكانه فلا ييأس ضعيف من عدله ولا يطمع قوي في حيفه؟

حكيم وليس حاكم

أكثر أسمائه سبحانه واردة في صيغ مبالغة على وزن فعيل وفعول وفعال وفعلان وقليل منها ما ورد بصيغة تخالف ذلك لأنّه يريد أن يعلّمنا أنّه مستو فوق عرش كلّ محمدة ومكرمة وإليه يفيء الكمال فيئا ومنه يضوع الجمال ضوعا ويبسط جلاله سبحانه على خلقه بسطا. فهو بالغ الحكمة بالمعنيين الواردين أعلاه

من مظاهر حكمته سبحانه

لا يمكن مجرد عدّها بله إحصائها. ومن يرصد القرآن الكريم يظفر بحظّ وفير من ذلك. فهو سبحانه حكيم فيما أنزل من فرائض عائليّة في سورة النّور وعادة ما تكون الحكمة فاصلة قرآنيّة في إثر تشريع ما وخاصّة التّشريعات التي ستلقى في الأيام إعتراضات كما هو حال تشريعات كثيرة في حقل الأسرة والمرأة.

في فاصلة حدّ السرقة مثلا عقب بقوله (عزيز حكيم) لأنّ النّاس اليوم يعدّون ذلك قسوة بالغة وهي فعلا قسوة بالغة ولكن القسوة عندما تكون في موضعهـــا المناسب لحماية حقّ الإنسان في ماله، فلا تسمّى قسوة عند العقلاء بل تسمّى حكمة. في فاصلة آية الصدقات في سورة التّوبة مثل آخر ليعلّمنا أنّ الحكمة كلّها هي في توزيع الأموال لأولئك النّاس من الفقراء والمساكين وغيرهم، فإذا وزعت لغيرهم خرجنا من الحكمة إلى الجـــور. وغير ذلك ممّا يمتلأ به القرآن الكريم ولكن تضيق عنه هذه القالة المقتضبة فمن تتبّع مواضع الحكمة ظفر بعلم وفير وإيمان أوفر.

إقترنت الحكمة بالتّوبة حتّى لا ييأس النّاس من رحمة الله سبحانه فتغلب عليهم ـ أو تبهرهم ـ صفة الحكمة الإلهيّة قهرا أو توافقا، فيقنطون .

هل للإنسان من الحكمة نصيب

مرّ بنا أنّ من أسماء الله سحبانه ما نتمثله ومنها ما هو خاصّ بــه (المتكبّر والرّحمان مثلا). للإنسان من حكمة الله سبحانه نصيب مقدّر، إذ عليه أن يطلب الحكم ويرشّح نفسه له إذ آنس في نفسه مهارة لذلك وعصبية بالتّعبير الخلدوني (عصبيّة اليوم هي عصبية الإنتخابات) لأنّ الحكمة ـ حكما ـ صفة لا بدّ منها، فإمّا أن تصرف لأهلها ويكون بها عــدل وقسط ورحمة وإجتمــاع وإمّا أن تصرف لغير أهلها فيكون جور وقهر وحيف.

وعلى الإنسان كذلك تمثّلا لهذه الصفة الإلهيّة أن يطلب الحكمة بمعنى توفير التّوافق والتّناظم والتّناسق في ملبسه ومطعمه ومشربه وهيئته وفكرته ولسانه وعمله وعائلته وحركته في النّاس. الحكمة إذن صفة إلهيّة يجب على الإنسان تمثّل ما يمكنه منها لأنّ (الله جميل يحب الجمال) و(يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) ولأنّ (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضّعيف). وما مدح الأنبياء بالحكمة وزكّاهم بها تزويدا إلاّ لنتمثل ذلك كلّ بحسب ما يحتمل واديه.

كلمتان أخيرتان في الحكمة

الحكمة كما ورد في قصة لقمان الحكيم هي : الشكر لله سبحانه ولذلك تكون الحكمة جبلة نفسية تردّ الفضل لأهله من ناحية وتكون خلّة عقليّة تهدي صاحبها إلى التّفكر والتّدبر والتأمل ومن فعل ذلك شكر الواهب قطعا مقطوعا. خلّة الشّكر هي أعسر عبادة لأنّ الإنسان مبناه الفجور، فإذا أصابته نعماء قلّما يشكر ومن يشكر وليّ النعمة بما أنعم عليه مجتنبا العلو والأثرة فهو الحكيم حقّا وعدلا وصدقا.

الحكمة كما ورد كذلك في القرآن الكريم من يؤتاها فقد أوتي خيرا كثيرا والعجيب أنّه تعقيب جاء في يمّ الحديث عن الإنفاق ومن ذا نعلم أنّ الحكمة ـ عمليا ـ في حياتنا هي بسط الإنفاق للمحتاجين وهو ضرب من ضروب الشّكر. الحكمة هي إذن سلوك الفضل مع الله ومع النّاس وليست كما ورثنا : قدرة عجيبة على تكديس الدّنيا والإفلات من العقاب المستحقّ ومهارة في الخديعة وإمعانا في المكر.

9 أفريل 1938

كَفَى لَعِبًا إِنَّ البِلَادَ مَرِيضَةٌ وَلَيْسَ بِشُرْبِ المَاءِ تَنْطَفِئُ الحُمَّى

«علي البلهوان»

نحيي في تونس خلال هذا الشّهر الذكرى 81 لأحداث 9 أفريل 1938 باعتبارها محطّة تاريخية حاسمة في مسيرة الكفاح ضدّ المستعمر الفرنسي، مهّدت الطريق أمام الحركة الوطنية لتكثيف نشاطها النّضالي والضّغط من أجل التحرّر. وهي ليست ذكرى عابرة بل ملحمة بطوليّة خالدة من أبرز الملاحم الوطنيّة التي كان بطلها الشّعب التّونسي بجميع فئاته ومختلف شرائحه.

سبقت أحداث التّاسع من أفريل تنظيم مظاهرات جماهيريّة حاشدة في اليوم السّابع شهدتها مختلف المناطق التّونسية للمطالبة ببرلمان تونسي يمثّل صوت الشّعب، وفي اليومين الثّامن والتّاسع شهدت هذه التّحركات أوجها بتونس العاصمة عندما خرجت مظاهرتان ضخمتان في نفس التّوقيت، الأولى بقيادة الشّهيد علي البلهوان والثّانية يقودها المناضل المنجي سليم نادت بحكومة وطنيّة و رفعت شعار « برلمان تونسيّ»، وشهد هذا الحراك خروج المرأة التونسية للتّظاهر لأوّل مرّة. وقد تصدّى الإستعمار الغاشم لهذه المظاهرات بعنف لم يسبق له مثيل كانت نتيجته سقوط عشرات الشّهداء والجرحى مع حملة اعتقالات واسعة للقادة والمناضلين السّياسيين.

من شأن هذه المناسبة وأمثالها أن تعزّز روح المواطنة عند النّاشئة وتكرّس لديها فكرة الانتماء لهذا الوطن العزيز والدّفاع عنه وهي فرصة لدعوة القوى الوطنيّة إلى توحيد الصفوف للوقوف في وجه قوى النكوص إلى الوراء التي لا تعترف لهذا الشعب بأحقيته في حكم نفسه بنفسه وتعمل جاهدة ليلا نهارا للإلتفاف على إرادته وتدجينه بشعارات من بينها «توفير لقمة العيش الكريم » حتّى ولو كانت على حساب كرامته وحرّيته.

عبدالله الرحيوي
«طالب باحث - فاس - المغرب»
arabierrahioui@gmail.com

يا عمر

أستشهد البطل المغوار وانكســـــروا
من ذا الذي جهل الأخبارَ يا عمـــــــر
قتلت في نجس والنجس حقهـــــــــم
ألا يُبَقَّ لهم في أرضـــــــــنا أثـــــر
صرعى تركتَهم في لعبة عــرفـــــت
«بيبجي» يجـــــهلها من فيكَ منبهـــر
أرديت واحدهم ثـــــلثت ثـانيهـــم
لم تكترث لهم أعـــــــــدادهم نفر
أنت الشجاع فلا نخشى مذلة مـــــن
يعطي معاهدة. إن عاهدوا غـــدروا
أعطيتهم جرعا للموت قـــاتلـــــــة
بالموسى تطعنهم طـعنا كما النمـــر
للّه دركم في كل مـــــــــــعترك
تسدون ما عجزت عن مثله البشـــــر
فيكم حذيفة والـضرغام سيدكم
عم النبي لـــــه في أرضكم قَبـــــــر
يا فرحة بقيت في القلب قد سكنت
في ضفة وقـــــعت ما كنا نـــنتظر
عطرت ضفتكم والعطر شـيمتكم
فارقد رقاد شـــــــــهيد بعده أثـــر

ذ. عبد المجيد بالبصير
«المغرب»
abou_albarae@hotmail.fr

ومضة في أفق الربيع

كتبوا على الماء انطفاء شراري *** والوقد منقوش على الأحجار
لا ينطفي رغم الزوابع والبلى *** وعواصف الأرياح والأمطار
وزواحف الأمواج تلطم خدها *** بالصخر أف للهوى الجبار
أمست به صغرى النفوس عزيزة *** وكبارها فعلى رصيف صغار
لا بأس فالتاريخ وكل أمره *** لتداول الأيام والآثار
فسيعقب الليل البهيم أشعة *** من تبر شمس من فصيح نهار
يغدو بها القلب الكليم بشاشة *** فياضة بالبشر بالأنوار
وسيهدأ العصف المروع للقطا *** الراشق الأوكار بالأوكار
الكاسر العيدان في أغصانها *** الكاشف السوءات للأشجار
لناثر الأوراق هاوية على *** حشف عصى أو رفات ثمار
وسينتهي لا بالرعود وإنما *** بالماء تخبو النار تلو النار
لتشع في الأفق المخضب ومضة *** براقة كأشعة الإبكار
فتلقف النور المزيف مثلما *** لقفت عصا موسى عصي سحار
فترقبوها لا تملوا ولتكن *** كمسلم للعقل والأفكار

د. خالد بنات
«شاعر فلسطيني - برلين»
kudus@drkhalidbanat.com

الصمت الفاجر

ألوية ثعالب آبقة تحمل لحودا
و جروح العار لا تدرك...
أمعاء ذئاب رقاعنا جحودا
تعتجن، تملح و تغمر حاجة دفء
تخمر حاجة الإنتماء لهودا
وعباءة عروبة فاخرة تلوثت
لم يعد للشهباء لنسجها وجودا
يشطر الليل لشطرين بوصفة
كهان أطراف خلاء و حقول تذودا
و جنون مصور صهوات خيله شغفت
تحدث مستورد نسيان ذاكرة جهودا
مخطوطات قمران، أبرج بابل،
حصون هوارية، أسوار مكناس،
بتراء أنباط، أهرامات نيل، حجر ميشع
و أختام آشور كنعانية قطع زمرودا
حداثة عولمة لقانون أجحف تعودا
نصوص صهيوني لتأريخ زيف مقرودا
,,إفقه بالتي هي أسلم أو إدفع بالتي هي أكلف،،
فرب بينك و حاكمك تكون روحك طرودا
و تحنونة سيوف على طوب رعودا
قانون قلاع عتيق :
,, أنفاق القلاع يسيل.. واديها بالطلقاء ،،
مشهد لغيبوبة غير منقوصة شرودا
و هامش ضيق حكاية بين دوائر رحمة سرودا

إستقالة، طرقات مع مشرديها تترحل مدودا
و النوم في عيون الضعفاء مغادرا وجودا
كما مجنات أصبحت تتخندق عارية سدودا
و أمراء السطر الأول بعدهم سرحوا هدودا
بين خمارات خمس نجوم متطاوحون برودا
و جهنم ودائعهم بخصر غانية عرق جرودا
تنهكهم ضجرا إن السرير أبت كانها وقورا
فتوجه قراراتهم بقبلة ورب تثملهم عهودا
موم تنفث تعاويذ بقاء خازوق اسيادهم قعودا
و لا هروب إلى قدرهم المستنقعي يعودا
جرح القدس لن يضمد بهكذا عروبة غرودا
و الامريفرنجي يندى يبتهج و يثمن وعودا
و ما نحن إلا بدون و بالشدة أعراب تذودا
أحشاءنا تنفض جمر الكون سيرا وقودا
نسهر أوطان العرب و لن ينام صباحنا
و ليلنا نعرّش بطلق براعمنا صمودا
فلا وجداننا بعد اليوم نغرب من ثنايانا
و لن ندع أنذالا لحصادنا ينتمون أسودا
غيضا بداخلنا لأوطاننا انتماء هكذا جرودا
و بروح شهدائنا السمق يرفضهم رمودا
بعدد نجوم سمائك سر عبر حواجزهم
لا صمت فاجر..
و حقق عودتك إلى وطنك بومض خدودا

محمد العشي
«شاعر وكاتب تونسي»
med.echi15@gmail.com

البحّار والأفق

ظلامٌ كثيفٌ يغشّي الأفقْ
وقد يحتمي بالمُنى

يزيدُ الظلامَ سحابٌ ثقيلٌ كأيّامنا
وبذكرى نجاةٍ

ضبابٌ عنيدٌ يزيد الأرَقْ
ثوتْ في سطور كتابٍ قديمْ

تطول الليالي
تداعى السفينُ

تضيع الموانيِ
وزاد اليقينُ

وبحّارنا تائهٌ
بقرب الغرقْ

باحثٌ عن شعاع الشفقْ
وفي عتمات الدجى

ففي مركب الدهر حطّ رحاله
على عتباتِ مهاوي الردى

يواجه موج الدياجي
أضاء شعاعٌ بقلب السماءْ

وموج الحياةِ
ولاح ضياءٌ يشقّ الأفقْ

ولذعَ القلقْ

أدغار موران ...
الفيلسوف الحكيم

«أدغار موران»، هو فيلسوف ومفكر وعالم اجتماع فرنسي، صاحب نظريّة التّعقيد والفكر المركّب، أنار، بأعماله ومؤلفاته، أكثر من جانبٍ في عصرنا الحالي نتيجة سعة اهتماماته، وأهمّية مؤلّفاته، وأحقّية مواقفه، وهو أحد المفكّرين المعاصرين الذين يُستمع لآرائه لأنّه من القلائل الذين ما زال بالإمكان إطلاق صفة «الالتزام» عليهم، فهو مشهور باستمرارية دفاعه عن القضايا العادلة أينما كانت، وعدم توانيه عن اتخاذ مواقف صريحة من القضايا المطروحة، ساعيا إلى فهم تعقيداتها، لا إلى إثبات آرائه بشأنها، لهذا فهو لا يتشبّث بمواقفه الإيديولوجية، إذا تأكّد له خطأها وعدم تماسكها بل يسعى إلى تجاوزها أو تطويرها لتتماشى مع القيم الإنسانيّة كالحقّ والعدل والحرّية.

في بداية القرن العشرين هاجرت أسرة «أدغار موران» - وهي من يهود سفارديون- من سالونيك في اليونان إلى مرسيليا ثُم إلى باريس حيثُ ولد إدغار هناك يوم 8 جوان 1921. توفيت والدته وهو في سنّ العاشرة. درس في باريس وتحصّل على الشهادة الجامعيّة في التاريخ والجغرافيا، وأخرى في القانون عام 1942، ونال دكتوراه فخرية من 14 جامعة عالميّة. خلال السّتينيات، أمضى ما يقرب من عامين في أميركا اللاّتينية، حيث قام بالتّدريس في كلّية أميركا اللاّتينية للعلوم الاجتماعيّة في «سانتياغو» بتشيلي. ثمّ عاد إلى فرنسا أين نشط كعالم اجتماع ومفكر وباحث في المركز الوطني للبحث العلمي، ورأس الوكالة الأوروبية للثّقافة بمنظمة الأمم المتّحدة للتّربية والتّعليم والثّقافة (يونسكو).

انخرط «أدغار موران» في شبابه في المقاومة، شيوعيّا، لكنّه تركها اعتراضا على فظائع السّتالينيّة وغياب الحدّ الأدنى من ممارسة الحرّية داخل الحزب الشّيوعي. وقد جعلته تجربته مع الفكر الشمولي ـ الشيوعي، شديد الحساسية حيال الحريات العامّة وحق التعبير عن الرأي وقاده إيمانه بفشل الثورات على النمط السوفييتي أو الماوي ـ الصيني إلى التفكير في البحث عن سبيل جديد للنهوض والتفتح الإنساني.

ناضل «أدغار موران» ضدّ معاداة السّامية، وأيّد استقلال الجزائر، وفي عام 1955 كان من بين أربعة مثقّفين فرنسيّين، منهم جون بول سارتر، أسسوا حركة تعارض حرب الجزائر.

وهو من المفكرين الأوروبّيين القلائل الذين ناصروا القضيّة الفلسطينيّة وتعاطفوا معها،حيث عرف

بمواقفه المؤيّدة لحقّ الفلسطينيّين في إقامة دولة خاصّة بهم، وقد قاده مقال كتبه في صحيفة لوموند ونددّ فيه بالسياسة الإسرائيلية إلى المحاكم الفرنسية عام 2004 حيث اتّهم، وهو اليهودي الأصل، بمعاداة السّامية. ونتيجة لهذه المواقف وغيرها فقد تعمّدت كبريات الصّحف والمجلات في فرنسا التعتيم كلّية على كتابه «العالم الحديث والقضية اليهودية»، المنشور عام 2006.

دافع «موران» عن ثورات الربيع العربي، واعتبر أنّ المفاهيم السّياسيّة السّائدة في العالم العربي سواء كانت بوليسيّة أمنيّة علمانيّة أو دينيّة تواجه رياح التّغيير، وإنّ الدّيمقراطيات الغربيّة دعّمت الاستبداد في العالم العربي، والعرب الذين أنهوا الاستعمار السّياسي هم الآن بصدد إزالة الاستعمار الفكري، لتبقى عمليّة إزالة الاستعمار الاقتصادي.

كتب «موران» العديد من الكتب والمؤلفات التي تناولت قضايا فكريّة مختلفة، وترجمت للعديد من اللّغات، أهمّها «الأحمق الغبي هو من لا يفكر» وهو مؤلَّف موسوعي من 100جزء. وأصدر أوّل كتبه «عام ألمانيا صفر» عام 1950، ثمّ «النقد الذاتي» عام 1959 وتطرق فيه لقطيعته مع الشّيوعية.

خلال الفترة ما بين 1977 و2004 نشر مؤلفه الضخم «المنهج» في ستّة أجزاء طرح من خلالها مفهوم فكره المركّب وعبّر فيه، بشكل واضح، عن المهمّة التي اختارها لنفسه: إقامة صلاتٍ بين ما لا يتواصل، ويتمّ فصله، أي بين قارّات المعرفة الأربع التي تشكّل أسس الحضارة الأوروبيّة: الطّبيعة (الفيزياء)، الحياة (بيولوجيا)، الأفكار (المعارف)، والبشريّة (أنثروبولوجيا). فمن خلال العمل عليها معا، أو تشغيلها معا، يسعى «المنهج» إلى توليد نوعٍ جديد من المعرفة، متفلّتٍ من كلّ أشكال التّأطير الخاضعة لنظم مقفلة، ووضع نموذجٍ يقوم على التّعقيد والتّركيب، الجمع والتّفريق.

وفي 1989 نشر كتاب «فيدال وعائلته»، ثم كتاب «الثقافة والبربرية الأوروبية» عام 2005 فـ«التجوال» عام 2006، و«أين يسير العالم» عام 2007 و«طريقتي» عام 2008. كما أصدر كتابا في مجال السّينما بعنوان «السّينما أو الإنسان المتخيّل» . وفي 2013 صدرت للمفكر الفرنسي مذكرات تحت عنوان «يوميات»، تتألّف من مجلّدين، وكان قد بدأ في كتابتها عام 1962.

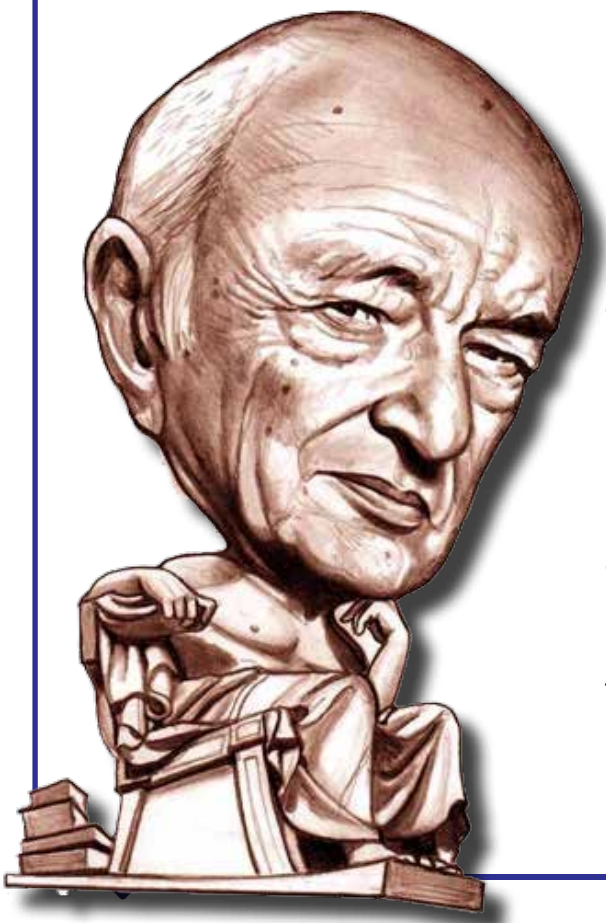

ولموران علاقة فكريّة وطيدة مع المفكر الإسلامي «طارق رمضان» حيث أصدر معه كتابا مشتركا عام 2016 تحت اسم «خطورة الأفكار: تساؤلات حول كبرى القضايا المعاصرة»، وهو عبارة عن حوار بين المفكرين. ودافع «موران» عن رمضان الذي يتابع قضائيّا في فرنسا على خلفيّة اتهامات له بقضية اغتصاب، وقال في حوارات له مع صحف فرنسيّة عام 2017 معلّقا على قضيّة رمضان إنّه يرفض الانضمام إلى «الإعدام الإعلامي دون محاكمة»، وقال أيضا إنّ رمضان مع إسلام أوروبي يقبل الدّيمقراطية والمساواة، وإنّه أظهر فكرا إنسانيا مطابقا لموقفه.

نقد «موران» بشدّة في كتاباته الغرب الأوروبّي الذي سقط - حسب رأيه - في مركزيّة تعتبر الشّعوب الأخرى في حالة من التّخلف والبدائيّة منحبسة داخل الفكر السّحري. والواقع أنّ ما تغافلته هذه المركزيّة هو حضور العقلانيّة في كلّ شكل من أشكال الحضارة، ففي كلّ مجتمع كما يقول موران «يوجد وبشكل متزامن فكر عقلانيّ تقني وعملي وفكر سحريّ أسطوريّ ورمزي».

ويتحدّث «موران» عن تطور النّزعة البربريّة الأوروبيّة ويعطي أمثلة متنوعة عن ذلك بدءًا من «العصر القديم» لدى الإغريق والرومان، وصولاً إلى «العصر الحديث» مع تشكُّل «الأمم الأروبية الحديثة: إسبانيا، فرنسا، البرتغال، إنكلترا» ثمّ بروز «التوليتاريّات» في القرن العشرين كالنّظام السّتاليني والهتلريّ الذين يعتبران بالنّسبة إليه إنتاجا كارثيّا للبربريّة الأوروبيّة. وفي ذلك كلِّه، يؤكّد «موران» على تلازم مستعصٍ بين الحضارة والبربريّة، جعل أوروبا تختبر كلَّ «أشكال البربريّة الخاصّة بالمجتمعات التّاريخيّة»، كالتّعصب الدّيني، والتّطهير العرقي، وتصفية المجتمعات الصّغيرة العريقة، والاسترقاق، والاستعمار، ونشر الأمراض.

يبقى الوعي بالنّتائج المتحصّلة المأساويّة للقرن العشرين: (مخيمات الاعتقال والإبادة "أوشفيتز" ألمانيا النازيّة و"الغولاغ" السوفياتي و"هيروشيما" أمريكا) وما حصل من تصفيات جماعيّة، واسترقاق وترحيل واضطهاد وما عرفه التّقدم المطّرد للعلم الذي وضع في خدمة «مشروع تصفية تقنيّة_علميّة لجزء من الإنسانيّة». هذا الوعي – بما حصل – ينبغي أن يقود حسب «موران» لا إلى النّدم فقط وإنّما إلى الاعتراف، إلى امتلاك القدرة على التّفكير في البربريّة الأوروبيّة لتجاوزها، من خلال إدماج البربريّة في الوعي الأوروبي من جهة والتّركيز على أنّ أوروبا يجب تنتج عبر الإنسيّة الكونيّة ترياق بربريتها الخاصّة.

إن الوعي ببربريّة أوروبا يقتضي، برأي إدغار موران، «المطالَبة بإنسيّة جديدة»، تتمّ عبر الاعتراف بجميع الضّحايا، بحيث لا يُقرأ تاريخ المأساة الإنسانيّة فقط انطلاقًا من معاداة السّامية، وإنّما يشمل كذلك السّود والغجر والأرمن وسائر جغرافيّات الاستعمار الغربي، من دون نسيان الفظاعة النّووية الأمريكيّة في هيروشيما. فحتّى لا تبقى أوروبا أسيرة وعي شقيّ، لا بدَّ من أن «يُدمَج في وعي البربريّة الوعيُ بأنّ أوروبا تنتج، عبر الإنسية، الكونيةَ [العالميّة] والتّطورَ التدريجيَّ لوعي عالمي، كما تُنتج ترياقَ بربريتها الخاصّة».

ويؤكّد موران أن الحضارة الرّاهنة تعطي الأولويّة لما هو «مباشر» وللتّكنولوجيا في إطار الثّورة الرقميّة وتقلّص بالمقابل من معرفة الماضي و«تكريس الانتباه على الحاضر والمباشر يقود للنّسيان». ويرى أن الإنسانية تدرك للمرّة الأولى في التاريخ، أنّ كلّ البشر معنيّون بمشكلات مشتركة في جميع قارّات العالم. وبالتّالي، ينبغي العمل من قبل الجميع، لتجنّب الكوارث التي يتّجه نحوها الجميع. وفي مقدّمة الأخطار، التّدهور الكبير الذي تعاني منه البيئة، تعاظم ظواهر التزمّت في مختلف مناطق المعمورة، فقدان الضّوابط لتنظيم الاقتصاد، ارتباط العلم والتكنولوجيّات بقوى عمياء بدرجة كبيرة.

لقد كان «إدغار موران» سبّاقا في تحسّس القادم وقراءة الحاضر واستشراف المستقبل، فكتب قبل الآخرين، لا بل قبل الأوان، عن أوروبا، وقضايا التّربية والتّعليم، والأضرار التي تتعرّض لها البيئة، ومواضيع أخرى كثيرة جعلت من هذا الفيلسوف والباحث الذي اشتهر بنزعته الإنسانيّة، وسعة علمه، وقدرته على التّعاطي مع التّضاد والتّناقض، رقما صعبا يستحيل تحجيمه أو تفاديه.

صورة...

... خير من ألف تعليق

لطفي الدهواثي
« عضو الهيئة العلمية
لمنتدى الفارابي للدراسات والبدائل»
lotfidahwathi2@gmail.com

أزمة في القيادة

كانت لدى الشّعوب في العالمين العربي والاسلامي قابليّة للإستعمار متعدّدة الأسباب ولم يكن من العسير على الدّول الاستعماريّة دخول أيّ بلد مهما كان مترامي الأطراف ومهما كانت قدرته على المقاومة، لقد بدت بلاد العرب والمسلمين قبيل الاحتلال أشبه ما تكون بالرّجل المريض الذي لا يقدر على شيء ممّا كسب ولا طاقة له برد أي مكروه . وإذا كان من الحتميّ أن تجتاح بلادنا جحافل المستعمرين ممّن كانوا أشدّ منّا قوّة وأكثر قدرة على الحركة والتّأثير، فإنّ السّؤال الذي لا نجد له إجابة، لماذا ضللنا عاجزين مسلوبي الإرادة طوال عقود من التّحرّر بعد خروج المستعمر واستقلال بلادنا واحدة تلو الأخرى رغم اعتقادنا أنّ مرحلة الاستعمار قد ولّت وأنّنا أصبحنا نملك زمام أمرنا من جديد؟ وهل مردّ هذا العجز أنّنا أطردنا المحتلّين ولكنّنا أبقينا على الإحتلال كما صار يتردّد الآن في أكثر من مكان؟ أم هل أنّ القابليّة للإستعمار ظلّت على ما هي عليه رغم ما دفعه أجدادنا من ثمن ورغم ما عشناه من وهم التّحرّر؟.

لقد تحرّرت بلادنا من حذاء المستعمر وثكناته وكلّ مظاهر الاحتلال وجاء حكّام من المفترض أنّهم وطنيّون من أبناء جلدتنا قارع الكثير منهم الإستعمار وذاق من أجل ذلك ويلات من النّفي والسّجن والتّعذيب

فهل كان هؤلاء الحكّام بارقة أمل للشّعوب التي حكموها بعد أن حرّروها من المحتل أم كانوا كارثة عليها وعلى بلادها؟.جاءت الدّولة الوطنيّة بديلا عن دولة المستعمر وكان من أوكد مهامها إعادة بناء ما تهدم واستئناف نسق ما توقّف منذ مئات السّنين من حضارة وتقدّم ورفاه، ولئن كان الأمر في ظاهره ممكنا أمام سيل الأحلام والأمنيات التي كانت تتقاذفها أمواج الشّعوب التّائقة للحرّية والنّماء، فقد بدا في الحقيقة صعب المنال منذ السّنوات الأولى وأصبح بعد ذلك عسيرا حين تحوّلت الدّولة الوطنيّة إلى استبداد مطلق وكابوس يجثم على رقاب الشّعوب وثرواتها ويحوّلها من شعوب حالمة مليئة بالأمل إلى شعوب خانعة مستكينة لا همّ لها إلا السّلامة والبقاء.

رفعت «الدولة الوطنية» شعارات كثيرة لعلّ أهمّها شعار التّحديث ومقاومة التّخلف. كانت المجتمعات في حينها في حاجة ملحّة للتّحديث غارقة في التّخلف المادّي والحضاري، ولكن الذين تصدّوا للقيادة فى تلك المرحلة لم يكن همّهم الأول العمل مع شعوبهم من أجل بناء مجتمع حديث مقاوم للتّخلف، فاعل في مجاله الجغرافي والحضاري وإنّما كان همّهم فرض نمط من الحداثة بعينه بغض النّظر عن إرادة هذه الشّعوب وبعيدا عن تطلّعاتها. بل إنّ هذا التّحديث كان تحديثا قسريّا محكوما بارادة الحاكم والنّخبة التي حوله متناغما مع إرادة المستعمر ونظرته للحداثة أكثر من تناغمه مع هويّة الشّعوب ووجدانها. وقد ظهر ذلك جليّا في نمط التّعليم والثّقافة وفي المنوال التّنموي والاختيارات الاقتصاديّة والاجتماعيّة وكلّ ما له علاقة بالسّؤال القديم الحديث أي مجتمع نريد؟ وأي حداثة نريد؟.

كانت النّتائج كارثيّة على مجتمعات ما بعد الاستعمار إذ عوض الانتقال من نير الاستعمار إلى روعة الاستقلال أو من التّخلف إلى الحداثة كما كانت تريد وجدت نفسها وقد انتقلت إلى نبر الاستبداد والتّبعية ومن ظلم المستعمر إلى ظلم أشدّ منه في ظلّ استبداد مستحكم لا هوادة فيه وحاكم بأمره لا يرى في المجتمع الذي يحكمه إلاّ قطيعا يسوقه حيث يشاء.

يبدو الأمر محزنا حدّ البكاء حين تعود القابليّة للاستعمار بقوّة عند شعوب أغلبها من الشّباب بسبّب ما ترتّب عن توليّ قيادات رعناء زمام الأمر في شعوب لم تختر تلك القيادات ولا شاركت بشيء في مصيرها، وليس شرطا أن تخرج تلك الشّعوب في مظاهرات من أجل المطالبة بعودة الاستعمار حتّى نصدّق بوجود هذه القابلية وإنّما يكفي أن نرى جحافل المهاجرين إلى بلاد الاستعمار من كلّ الفئات الاجتماعيّة غنيّة وفقيرة، متعلمة وجاهلة. ويكفي، نرى تفاقما في أزمة الهويّة وهذا الدّفاع المستميت عن لغة المستعمر وثقافته ونمط لباسه وأكله وسلوكه، وهذا التّوق الجارف نحو محاكاته في كل شيء وكأنّ أجدادنا الذين قاوموه كانوا مخطئين أو كأنهم لم يكونوا على تماس معه في لسانه وعيشه ونمط حياته وكلّ ما كانوا يرون عارا في اتباعه.

الذين تصدّوا للقيادة فى مرحلة ما بعد الاستعمار لم يكن همّهم العمل مع شعوبهم من أجل بناء مجتمع حديث مقاوم للتّخلف، وإنّما فرض نمط من الحداثة بعينه بغض النّظر عن إرادة هذه الشّعوب.

لقد كان جليا أنّ الأزمة في القيادة ولكن هل كان للشّعوب يد في هذه الأزمة التي ما تزال تستفحل يوما بعد آخر؟ الإجابة نعم بلا أي شكّ.

لا تنحصر أزمة القيادة في القيادات التي قادت الدّولة والنّظام ما بعد الإستقلال فقط، ويكفي أن نلقي نظرة على كل الأحزاب والقوى والفعاليّات التي نشأت قبل الإستقلال وبعده لنرى قيادات قد شاخت، وأخري ورثت أبناءها وثالثة لم تجد حرجا في التآمر وتغيير السّياسات والولاءات في سبيل البقاء قائدة رغم تفاقم الأزمات داخل الكيانـات التي تقودهـا حتى أدّى الأمر ببعضهـا إلي الدّخول في مغامرات أودت ببلادها إلى مهلكة ودمار.

في شرق البلاد كما في غربها، مازلنا نعطي الأولويّة في القيادة للشّيوخ والزعماء والولاءات، ومازلنا لا ندرك أهمّية التّغيير وترك المجال للمجتمعات كي تفرز قيادات جديدة تقطع مع الماضي وتكون بحقّ تعبيرا حديثا عن تطلّعات مجتمعات حيّة تتفاعل داخلها المشارب والآراء في ولاء للأوطان دون غيرها.

لعلّ من نافلة القول أنّ لكلّ حركة أو مشروع أو سلطة قيادة، ومتى كانت الأزمة في القيادة كان الأمل في التّغيير وتحسن الأوضاع ضئيلا ولنا في ثورات الرّبيع العربي أفضل مثال. لقد كان من شأن هذه الثّورات إحداث التّغيير المرجو رغم كلّ المخاطر لو استطاعت الدّفع بقيادات وطنيّة حكيمة لا تختزل في شخوصها كلّ شيء ولا ترى لنفسها بديلا وإن بلغت أرذل العمر.

إنّ إحداث تغيير ما لا يأتي بالتّضحيات فقط فكم ضحى الشّعب السّوري أو المصري أو اللّيبي وما زال، ولا يكون فقط باستنساخ أنماط الحكم التي ساهمت في تغيير واقع الشّعوب الأخرى دون أن تكون لنا الإرادة الحقيقية للتغيير، إنّنا بحاجة لحلّ معضلة القيادة حتّى نتمكّن من تغيير الواقع، قادة كالأنبياء يكون همّهم رسالاتهم قبل شخوصهم ومبادئهم قبل ولاء النّاس، قيادات تجعل الشّعوب والأحزاب والكيانات أشدّ حرصا على مقاومة الاستعمار بجميع أشكاله من حرصها على القيادة حتى نكون في منآى عن إعادة انتاج المستعمر لنتخلص نهائيّا من القابليّة للإستعمار.

9 أفريل 2003

سقوط بغداد.. لغز تحيط به الخيانة

فى التّاسع من أفريل منذ ستّة عشر عاما، استيقظ العرب والمسلمون على فاجعة هزّت مشاعرهم وأدخلت في قلوبهم اليأس، «فاجعة سقوط بغداد» جراء خيانة يتذكّرها القاصي والدّاني وكأنها حدثت البارحة، فقد سقطت بغداد دون أيّة مقاومة تذكر، وأختفى الجيش العراقي بين ليلة وضحاها، وتجرأ عدد من العراقيين صحبة الجنود الأمريكان على تحطيم تمثال صدام حسين وسط تهليلهم .

ورغم زعم حاكم بغداد طيلة أشهر عديدة قبل الفاجعة بأن بغداد ستكون مقبرة للغزاة في ضوء ما تتمتّع به من تحصينات، فإنّ السّاعات الأولى من فجر 9 أفريل 2003 شهدت اختفاء القوات العراقيّة منها، كما اختفى «فدائيو صدام» وجنود «حرسه الجمهورى»، ولم يرفع أحد السّلاح في وجه القوات الامريكية سوى عدد قليل من المتطوعين العرب الذين لقوا حتفهم في المعركة الشهيرة في مطار بغداد أين استخدمت قوات التحالف ضدّهم أسلحة محرّمة دوليّا استخدمت لأوّل مرّة، وسقطت بغداد في مشهد سريالي محزن لترسم حدثا من أهم الأحداث التى غيرت تاريخ المنطقة العربيّة، سيستمر لغزا تحيط به الخيانة، وعملا إجراميّا يضاف إلى جرائم الجيش الأمريكي وحلفائه.

ومنذ ذلك التّاريخ يعيش العراق في دوّامة العنف والدّمار والقتل اليومي على أيدى عصابات السّلاح والمخدّرات والآثار، وتجّار البشر، وشهدت السّنوات التّالية للغزو، انقسام العراق طائفيّا، فحصلت الطّائفة الشّيعيّة على معظم الوزارات السّياديّة الى جانب رئاسة الحكومة، فيما استأثر الأكراد بالحكم الذّاتى فى إقليم «كردستان العراق»، إلى جانب تزايد وتيرة العمليّات الإرهابيّة عبر السّيارات المفخّخة والعبوات النّاسفة، وعمليّات الاغتيال التى طالت الجميع دون إستثناء فضلا عن تعثّر الخدمات الأساسيّة .

الشيخ إمام

الخط دا خطي

الخط دا خطي
والكلمة دي ليا
غطى الورق غطي
بالدمع يا عنية
شط الزتون شطي
والارض عربية
نسايمها انفاسي
وترابها من ناسي
وان رحت انا ناسي
ما تنسانيش هى
والخط دا خطي
والكلمة دى ليا
... ...

لاكتب على عينى
يحرم عليكى النوم
واحبس ضيا عينى
بدموعى طول اليوم
قبل الوفا بديني
زي الصلا والصوم
والدين فى عرف الحر
هم ومذلة ومر
وشجون تصون وتجر
احزان مخبية
والخط دى خطي
والكلمة دى ليا
... ...

لاكتب على كفي
والحبر من دمي
ياهمتي كفي
يا عزوتى ضمي
اول ما ح نوفي
بالوعد
ح نسمي
باسم اللى ماتوا صغار
فى المدرسه والدار
والمصنع اللي انهار
فوق الصنا يعية
والخط دا خطي
والكلمة دى ليا

لسماع الأغنية على العنوان التالي:
https://www.youtube.com/watch?v=N_LLvWPtqZ4

الدعوة المستجابة

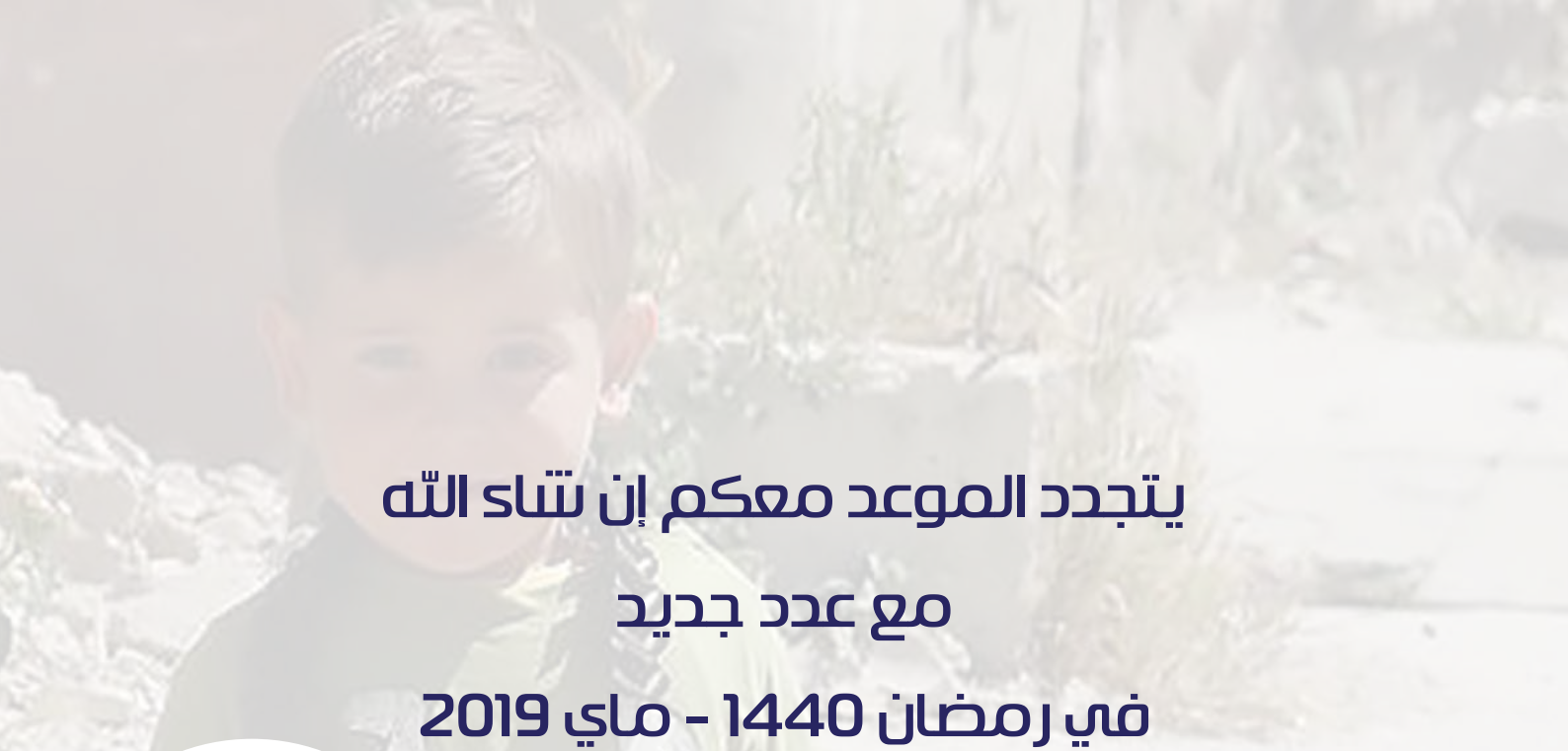

يتجدد الموعد معكم إن شاء الله

مع عدد جديد

في رمضان 1440 - ماي 2019

142

www.alislahmag.com

alislah.mag@gmail.com

facebook.com/Alislahmag

twitter.com/alislah_mag

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©